

د. الصادق عوض بشير

سر قوة المرأة عند ابن عربي

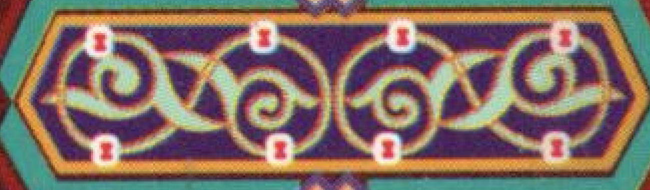




الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.







سر قوة المرأة عند
ابن عربي

سر قوة المرأة عند
ابن عربي

د. الصادق عوض بشير



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL



الطبعة الأولى

1435 هـ - 2014 م

ردمك 978-614-01-1350-3



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)

ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

إهداء

إلى أمي

البتول بنت محمد أحمد ابن الفكي حمد الصادق
(1917 - 2002 م)
تلك المعلمة السودانية التي تتلمذت
على يديها عشرات المئات من بنات آدم وحواء...
فجسدت بشخصيتها وتدينها وما أنجبه رحمها
من عشرة من البنين والبنات سر قوة المرأة
عند ابن عربي.. فعليها وعليه رحمة الله وبركاته.

إن النســـاء شـــقائق الـــذكران

في عـــالم الأرواح والأبـــدان

والحكم متحـــد الوجـــود عليهمـــا

وهـــو المعـــبر عنـــه بالإنســـان

وتفرقـــا عنـــه بـــأمر عـــارض

فصل الإنـــاث بـــه عـــن الـــذكران

محي الدين بن عربـــي

المحتويات

مدخل عن المرأة

سأل يوما طفل أباه عن المخلوق الذي اسمه المرأة.

أجابه والده قائلا: إذا نظرت لكل المميزات والمواصفات التي وضعها الله فيها تجد أن المرأة تمتلك أكثر من 200 جزء متحرك لتؤدي كل ما هو مطلوب منها! ويجب أن تكون قادرة على عمل كل أنواع الطعام! وقادرة أن تحمل بالأولاد ولعدة مرات! وأن تعطي الحب الذي يمكن أن يشفي من كل شيء، ابتداءً من ألم الركبة وانتهاءً بألم انكسار القلب! وأخيرا يجب أن تفعل كل ذلك فقط بيدين اثنتين.. اثنتين فقط.

تعجب الطفل وقال: بيدين اثنتين فقط تفعل كل ذلك.. هذا مستحيل.

قال الأب: إنها الأقرب لقلب الله... إنها تداوي نفسها عند مرضها وقادرة أن تعمل 18 ساعة يوميا.

اقترب الطفل من أمه ولمسها وسأل والده قائلا: لكنها ناعمة ورقيقة جداً.

قال الأب: نعم إنها رقيقة لكنها قوية جداً.. إنك لا تستطيع تصور مدى قدرتها على التحمل والثبات. سأل الطفل: هل تستطيع أن تفكر؟

أجابه والده قائلا: ليس فقط التفكير، يمكنها أن تُقنع بالحجة والمنطق كما يمكنها أن تحاور وتجادل. لمس الطفل خدود أمه

واستغرب قائلا: لماذا خدودها مثقبة؟ أجابه والده إنها ليست الثقوب بل إنها الدموع. لقد وضع عليها الكثير من الأعباء والأثقال. ولكن لماذا كل هذه الدموع... سأل الطفل؟

أجابه والده: الدموع هي طريقتها الوحيدة للتعبير عن حزنها وأساها.. شكها.. قلقها.. حبها.. وحدتها.. معاناتها.. فخرها.. هذا الكلام كان له الانطباع البليغ لدى الطفل.. فقال بأعلى صوته.. حقا إن هذا المخلوق الذي يسمى "المرأة" مذهل جداً. المرأة تمتلك قوة يدهش لها الرجال.. يمكنها أن تتعامل مع المشاكل وتحمل الأعباء الثقيلة.. تراها تبتسم حتى وإن كانت تصرخ.. تغني وإن كانت على وشك البكاء.. تبكي حتى عندما تكون في قمة السعادة.. وتضحك حتى عندما تخاف.. تدافع عن كل ما تؤمن به.. وتقف في مواجهة الظلم.. ولا تقول كلمة (لا) عندما يكون لديها بصيص أمل بوجود حل أفضل.. حبها غير مشروط.. تراها تبكي في انتصار أولادها.. أو في حزن يصيب أحداً من حولها. لكنها دائما تجد القوة لتستمر في الحياة. تؤمن أن القبلة والعناق يمكن أن تشفي كل قلب منكسر.. لكنها دائماً تقع بخطأ واحد.. إنها لا تعرف قيمة نفسها.. ولا تعرف كم هي ثمينة ونادرة.

مقدمة

لمْ يُنصِف شخص المرأة، وخاصّة المرأةُ العربية المُسلمة، كَمَا أنصفها الشيخ الأكبر مُحْي الدّين بن عَرَبي (1165 - 1240م) المعروف في الأوساط الصوفية بسلطان العارفين (وهُم العَارِفونَ بالله). يقول في كتبِهِ الكثيرة التي تجاوز عددها الأربعمائة كتاب، أشهرها على الإطلاق (الفتوحات المكيَّة) بمجلداته الأربعة، التي تحتوي على حوالي 2800 صفحة. أنّ إنصاف المرأة مِنْ إنْصَافِ الله تعالى. وجسَّدَ هذه المقولة في بيتين من شعرِه يقولان:

إنَّا إنَاثٌ لِمَا فِينَا يُولّدهُ
فَلْنَحْمَد الله مَا فِي الكَون مِنْ رجلٍ
إنَّ الرِّجَالَ الذين العُرْفُ عَيّنهمْ
هُمْ الإنَاثُ وهُمْ نَفْسِي وَهُمْ أَمَلِي

ومِنَ الذّين سَبَروا غور هذا الإنصاف الكاتبة نزهة براضة[1]، فأعطتْه بُعداً إنسانياً. قالت في مقدمة كتابها (الأنوثة في فكر ابن عربي) "إنّ الأنوثة تشكل بالنسبة إلى ابن عربي أحد الأركان المحورية في فكره، بل اِعتبرت أنّ خطابه في عمقه وشموليته، يعكس خطاب الأنوثة... وأنّ حُضور الأنوثة في خطابه يخترق تصور الشيخ

للوجود والكون والإنسان واللغة والعرفان والسلوك والخيال... ويتقاطع عبرها الإنساني بالوجودي". ثم استشهدت الكاتبة بالأستاذ "ميشيل سودكيفتش الذي قال في إحدى ندواته "أنّ فكر ابن عربي يقوم على ثلاثة محاور تتمثل بالحقيقة المُحَمَّدِية، والإنسان الكامل والأنوثة.

فالباحثون اهتموا بالمسألتين الأوليتين وهي الحقيقة المُحمّديّة والإنسان الكامل، أمّا مفهوم الأنوثة لَمْ يلْقَ الاهتمام المناسب في فكر ابن عربي.

ثم ذكَرَت الكاتبة أنّ القضية التي تميّزَ بها ابن عربي في عصره هي إقراره بعدم الاختلاف بين المرأة والرجل على المستوى الرمزي، وهذا أدى إلى إعادة النظر والتأويل في مجموعة من المقولات والأحكام والدرجة الفاصلة بين المرأة والرجل والتكافؤ بين المرأة والرجل، والتمييز الاجتماعي والجنسي بين الحُرَّة والأمَة، ومقولات من أمثال "الرجال قوّامُون على النساء.. والمرأة ناقصة عقل ودين.. وللرجال عليهنّ درجة.. ولن يفلحَ قوم وَلُّوا أمرهم إلى امرأة.. و"شهادة المرأتين تَعْدِل شهادة الرجل الواحد".. وغيرها من المقولات والأحكام".

وذلك عن طريق الغَوْص في معاني النُّصوص استناداً على ما يراه ابن عربي من أنّ كل أَشْكال الموجودات (الكائنات والعلاقات والعبادات... الخ) تقوم على أساس التركيب بين الظاهر والباطن، وعلى أساس أنّ الحقيقة لا تعبِّر عن نفسها بأسلوب واحد ومِنْ ناحية واحدة بلْ تتعدّد بِتَنوُّع وجوهها وبتباين المواقع التي تُشَاهد منها هذه الحقيقة. وقد ترتَّب على هذا التصوّر كما تَرَى الكاتبة نزهة

براضة.. حضور قضايا تبدو متناقضة على مستوى الظّاهر، وهي في حقيقتها ذات بنية تركيبية يختلف ظاهِرها عن باطنها، مِمّــا أدّى - بجانب تداخل النُّصوص الأخرى المستقاة من التصــوُّف والفلســفة والفقه وعلم الكلام - إلى أنْ يصُوغ ابن عربــــي نظريــة وأدوات منهجية تَكْسِر طَوق الإنغلاق المفاهيمي والمعرفي، وتفْتح آفاقاً لتعدُّد القراءات لقضايا مبنيّة على حُضُور الأنوثة والذكورة.

هنالك قضية مركزية في تفكير سلطان العارفين ابن عربــــي مفادُها في كَوْن الشيء لا يُعْرَف إلاّ بنقيضه ويترتّب على ذِلــك أنّ الوعي بالذُكورة (الفاعلة) لا يقوم إلاّ بمشاهدة الأنوثــة (المفعــول بها) مِمّا يسمح بإحالة الأحديّة الذاتيّة الســاريَة في الكــون علــى الأنوثة.

صحيح أنَّ القضية المِحْوَرية التي شَيَّد عليها ابن عربــي كــل تفكيره، والمتمثلة في كون الحُب أساســاً للوجــود، أوضــحتْ أنّ الوجود الكُلّي والجزئي لا يقُومان إلاّ بحضور الذكر والأنثى، ومِــنْ هُنا جاء تحيُّز ابن عربــي للمرأة باعتبار أنّ الرّحم (وهــو الخــاص بالأنثى فقط وليس الرجل) هو شجنة من الرحمن، ويُعَبِّــر الخــالق سبحانه وتعالى عن هذه الرَّحمة بصلة الرّحم. والرحمة صــفة إلهيــة تسري في الوجود، ومِنْ هذه الرَّحمة الواحــدة الســارية في العــالم اقتضت حقيقتها أنْ تجعل الأُم تعطف على ولدها في جميــع أنــواع الحيوانات. ويؤكد هذا تشابك العلاقة بين الرحمن والإنســان الــتي وصفها ابن عربــي بالدورة التكوينية التي يلْتقي فيها الأصل بالفرع، بل ذَهب أبعَد مِنْ ذلك فقال "إنّ منــزلة المرأة من الرجل في الأصل هي بمثابة منــزلة الرحم من الرحمن لأنّها شجنة منه، وتشابك هــذه

العلاقة بين الإلهي والبشري ظهرت بجلاء واضِح في المرأة لأنّها ذات رحم يمنحها القُدرة على الإنجاب، ويجعلها تقتَسِم هذه الخاصيّة مع الخالق وتستحق بذلك صفة خليفة الله في الأرض". فمن رحِمِها ولد البشر، وجاء التراحم والوُدّ بينهم، وتجِدْ هذه الصّفات نبعها وأصلها في الرحمة الإلهية الممتدة في البشر، وقد تضمّن الحديث النبوي الذي رواه الترمذي هذا المعنى "الرحم شجنة من الرحمن فمَنْ وَصَلَها وصل الله ومن قطعها قطعه" ومن حسن الصدف صدور كتابين عن ابن عربي(4)و(5) يتحدّثان عن موقفه من المرأة، وقد تزامَن ذلك مع منْح امرأة يمنية عربية جائزة نوبل للسلام للعام 2011 وأيضاً مع كتابنا هذا.

ومن هذا المنطلق انبثقت فكرة هذا الكِتَاب لتطرح تساؤلات كثيرة مُعاصرة في زمان اشتَدَّتْ فيه ليس فقط المطالبة بحقوق الإنسان، بل أيضاً بحقوق المرأة تحديداً، والتي ظلّت منقوصة وفي تدهور مستمر، خاصّة في الدول العربية والإسلامية حتى اندلعت انتفاضات بعض الشعوب العربية في المشرق والمغرب والتي عرفت بالربيع العربي، ولعبَتْ فيها المرأة دوراً بارزاً مِمّا مكّن الشابّة اليمنية توكل عبد السلام كرمان الصحفية وحاملة درجة الماجستير في العلوم السياسية من المشاركة مع أُخريات في الحصول على جائزة نوبل للسلام للعام 2011. التساؤل الأكبر يقول إذا كانت المرأة ناقصة عقل ودين، فكيف نجحتْ بتوفيق من الله تعالى في لعب أدوار مصيرية بارزة وعظيمة، ليس فقط في بَلْوَرة مسار مجتمعها الأنثوي، بلْ أيضاً في تحديد المسارين الذكوري والأنثوي معاً. فتَوكُّل كرمان أصبحت حديث العالم ليس فقط باعتبارها امرأة تُمَثّل اليمن الجديد،

بلْ امرأة تُمثّل العَالَمَين العربـــي والإسلامي المُعبِّرَان عن ســـر قـــوة المرأة التي بشَّر بِها سلطان العارفين مُحْي الدين بن عرَبـــي.

هنالك استحقاق وجودي ووطني وموضوعي لا يقبل الانتقاص والمساومة وينبغي لكل عاقل ومنصف أن يتمسك به، وهو النظر إلى المرأة ككائن إنساني وليس كأنثى فقط.

فمفهوم الأنثى طالما أحط من قدر المرأة كإنسان ليس فقـــط في المجتمعات المتخلفة أو العربية والاسلامية بل أيضـــا في الكـــثير مـــن مجتمعات العالم الأخرى التي يعد بعضها راقيا، وظلت ينظـــر اليهـــا كعورة يجب اخفاؤها وأن لا تظهر إلا في فراش الزوجية في الغـــرف المغلقة والمظلمة، الشيء الذي يحط من قدرها ولا يتفق اطلاقـــا مـــع ارادة خالقها سبحانه وتعالى. وهذه الدراسة تصب في هذا الاتجـــاه الإنساني وتدعم الكثير من مواقف ابن عربـــي ســـلطان العـــارفين انصافا للمرأة.

يشتَمل الكتاب على مدخل ومقدمة وعشرة فصول. يتحـــدّث الفصل الأول عن ابن عربـــي، شخصيته وثقافته وجذوره المعرفيـــة والصوفية وريادته في هذا الميدان. ويتحدّث الفصل الثاني عن موقف ابن عربـــي من الأنوثة والذكورة كمقامان روحيّـــان وكحقيقتـــان وجوديّتان. ويتَنَاوَل الفصل الثالث حقيقة أن حواء هي أصـــل آدم، والفصل الرابع يعنى بمُوضوع ما يجمع ويفرِّق المـــرأة عـــن الرجُـــل، ويُرَكِّزْ الكِتَاب في الفصل الخامس على موقف ابن عربـــي مِنْ حقيقة الإنسان الكامل كخليفة للرَّب، وَيَتَسَاءَل في الفصل الســـادس عـــن المرأة هل هي عورة أم مَفْخَرَة؟ أمّا الفصل السابع فيُجَاوَب فيه عـــن السؤال الذي يقُول هَل حُبّ النساء إرث نبوي؟ والفصـــل الثـــامن

الذي يتحدّث عن الرجل كفاعِل والمرأة كمفعُول بها، والفصل التاسع الذي يتحدّث عن النساء اللائي فقن الرجال تصوفاً، ويُخْتَم هذا الكتاب بالفصل العاشر عن المرأة والتجلي والحب الإلهي. وأخيرا لا يسعني إلا أنْ أشكر الأستاذين البراء طه حسين وعلى دياب الشيخ، لما بذلاه من جهد في طباعة وتنسيق هذه الدراسة وبالله التوفيق.

الفصل الأول

من هو ابن عربي؟

محي الدين بن عربي المولود في الأندلس في 28 يوليو عام 1165م والمتوفّى في دمشق بسوريا في 16 نوفمبر عام 1240م، والمدفون على سفح جبل قسيون يحْتل موقع الصّدارة في الاهتمام بالدراسات الصُّوفية والإسلامية نسبة لكثرة مؤلفاته في هذا المجال والتي فاقت الأربعمائة كتاب، مما جعل الدارسون يطلقون عليه لقب الشيخ الأكبر وسلطان العارفين.

وهو كما يقول الكاتب جهاد فاضل[7] قفز بالتَصَوّف الإسلامي من مرحلة الزهد والتعبُّد إلى مرحلة أصبح فيها التصوُّف عِلماً يعرَفْ عندَ أهله بعلم الباطن. وهي المرحلة التي امتزج فيها النظر بالعمل، والعقل بالكشف وتنوعت فيها الموضوعات التي يَطْرُقها الصوفي بغية إصابة الحق ونيل درجة الكمال. يلاحظ بأن ابن عربي لم تكن له ميول صوفية في مطلع شبابه، بل كان منصرفا بكليّته إلى الآداب وممارسة الصيد ثم عمل كاتبا في حكومة اشبيلية[20].

يعُود اهتمامي بمحي الدين بن عربي لعدد من الأسباب، منها ما هو متعلّق بالتصوُّف نفسه، ومنها ما يتعلّق بابن عربي وتجربته وفكره، بجانب ما صدَر مِنْ مؤلفَات كثيرة عنه بلُغات مختلفة. ومن دراسات لمؤلفاته وأفكاره يصعب حصرها، ومَا يُعْقَد له من ورش عمل وندوات ومؤتمرات على مدار السنة في مختلف أنحاء العالم، أحدثها دراسة الباحث الجزائري (ساعد خميسي) المُعَنْوَنَة "ابن العربي المسافر العائد"[6].

ولكن الملفت للنظر، والأكثر أهمية هو موقف ابن عربي من المرأة وحقها في المساواة مع الرجل. ويستمد ابن عربي كعادته القاعدة الأساسية لآرائه من النصوص القرآنية والسُنِّية. ويذهب به البُعْد الفلسفي الصُّوفي إلى الاعتقاد بأن الإنسان هو عبارة عن تركيب بين الأنوثة والذكورة لأنه بذلك يبْلُغ الكمال ويستحق منزلة الخِلاَفة التي لم تقتصر على ذكورة ولا على أنوثة، بل تجمع كائناً واحداً اسمه الإنسان، الجزء المُذَكّر فيه خلقه الله بيديه، والجزء المؤنث فيه بَعَثَهُ الله كاملاً من الجسم المذكّر.

ومُحي الدين بن عربي وِلِد بشَرق الأندلس ثم انتقل مع أسرته إلى أشبيلية وهو في الثامنة مِنْ عمره، ودَرَسَ منذ صِغَره القرآن الكريم والحديث والفقه واللغة والآداب والتصَوُّف، التي كانت علوم عصره، وذلك على يد أشهر علماء الأندلس. معرفته الصوفية جمعت بين المعرفة وتجربة الخلوة الصوفية والرؤية الروحية مع التَنَقُّل المستمر بين شيوخ التصوف وحضور المناظرات.

وألّف الكثير من المؤلفات الموسوعية أهمها "الفتوحات المكّية" و"فُصوص الحكم" و"تُرْجُمَان الأشْوَاق" الذي ألّفَه تَشَبُّباً بجمال ابْنة شيخه في مكّة المكرمة واسمها نظام ابنة الشيخ مكِين الدين الأصفهاني، والتي أحبّها حبّاً شديداً، وكانت الزّوجة المفضلة له. والتي لمْ يُحبها وحدها فقط بلْ كانَ معجباً بوالدها وبعمّتها وبكل ما يمتّ لها بصلة.

ويكفي النّظر في كتابه "ترجمان الأشواق" لنَعرف مدى حبّه لها واتِّخَاذها نموذجاً لمنْ تجلّى له الحقّ فيها، فسافر به الخيال إلى الله منطلقاً منْ جمال المرأة التي احتوت صور الحق إلى الجمال المطلق.

فحول ابن عربـي شِعره في زوجته إلى رَمْز، مُحوّلاً إياه إلى فِكْـر وفلسفة صُوفية سَافَر بها في مرآة حبيبته، - كما قال الكاتب سـاعد خميسي - إلى عالم مطلق[6].

وله مع كتاب "فصوص الحكم" قصة قال عنها: رأيت رسـول الله ﷺ في مبشرة أديتها في العشر الأواخر من المحرم سنة 627 هـ بدمشق وبيد الرسول ﷺ كتاب، فقال لي: "هذا كتاب (فصـوص الحكم) خذه وأخرج إلى الناس ينتفعون به"[20].

تَتَلمذ ابن عربـي على يد شيوخ التصوُّف من الرجال والنساء. تقُول الكاتبة نـزهة براضة[4]: "إنّ لحضور النساء في حياته دوراً في توجهه نحو التصوُّف، وكانَ أيضاً لزوجته الأولى مريم بنت محمد بن عابدون البجائي الأثر في انخراطـه في هـذا الطريـق"، وكـذلك الأمر بالنسبة إلى المرأة المحبة فاطمة بنت ابن المثنى القرطبـي الـتي يقول في حقّها: "وخدمت أنا بنفسي امرأة من المُحبّات العارفـات بأشبيلية، يقال لها فاطمة بنت ابن المثنى، خَدَمْتهَا سنين وهي يزيـد عمرها في وقت خدمتي إياها على خمس وتسعين سـنة، وكانـت تقول لي: "أنا أمك الإلهية ونور هي أمك الترابيـة"، وإذا جـاءت والدتي إلى زيارتها، تقول لها: "يا نور هذا ولدي وهو أبُوك فَبرِّيه ولا تعُقِّيه".

ذَكَرَ المُفَكِّر العلماني الدكتور نصر حامد أبو زيد أحـد أكثـر المهتمين بالدراسات الخاصة بمحي الدين بن عربـي[5]، أن اختيـاره للشيخ الأكبر دون غيره من المُتَصوفة والفلاسفة لدراسة قضية التأويل وخاصة تأويل القرآن الكريم، كان قائماً على عدة أسباب أولها أهمية ابن عربـي نفسه ودوره في تاريخ الفكر الإسـلامي، وثانيـاً لأنّ

دراسة ابن عربي تُثير بشكل واسع مُعضلة التأويل، وثالثاً لأنّ التأويل عند ابن عربي ليس مجرد وسيلة في مواجهة النص بل هو منهج فلسفي كامل ينتظم الوجود والنص معاً.

وذكر أيضاً أنّه لم يختلف الباحثون قديماً وحديثاً حول أحد قَدْر اختلافهم حَوْل ابن عربي. اختلف القدماء حوله وتأرجحوا بين طَرَفي نقِيض، فبعضهم اعتبره - كما يقول نصر حامد أبو زيد - قديسّاً وعارِفاً بالله وليّاً يتناسب اسمه مع دوره فهو محي الدين حقّاً. والبعض الآخر اعتبره كافِراً - زورا وبهتانا - مُلْحداً زِنْدِيقاً (مميتاً وليسَ محيياً للدين). وتأرجح ذلك تقييمه بين التكفير والتقديس. فمنهم المُتعصب الذي حاول إخراجه حتى من حظيرة الإسلام.. ومنهم المعتدل المستنير الذي عدَّه ركيزة أساسية من ركائز الفهم الصحيح للإسلام.

والأمر كلّه يدور حول فلسفته عن وحدة الوجود التي يقول عنها المُنْصِفُون له أنّه ينطلق بخصوصها منْ ثنائية حادة وواضحة تجمَع بين وحدة الوجود وبين الذات الإلهية والعالم من جهة، وبينها وبين الإنسان من جهة أخرى.

وتساءل أبو زيد مِنْ أين استقى محي الدين بن عربي مثل هذا التصوّر وما دلالته ومغزاه في إطار قضية تأويل القرآن الكريم من جهة والواقع الذي عاشه ابن عربي من جهة أخرى؟ وليس من شأن هذه الدراسة الإجابة عن هذا التساؤل الفلسفي الذي يقع خارج نطاق انتصار ابن عربي للمرأة.

ولكن الحقيقة التي لا تقبل المزايدة أن ابن عربي يعد عند غالبية المسلمين المستنيرين المنصفين من أكبر المفكرين على الإطلاق،

ومسألة كفره وزندقته هذه في اعتقادي لا يحق لأحد أن يفصل فيها لأنها شأن من شؤون رب العالمين بإجماع علماء المسلمين.

ذكر الكاتب الجزائري ساعد خميسي[6] أن أهمية ابن عربي تكمن في أنه جسد وحدة المذاهب والأديان من خلال ماله من أثر على الفكر الإسلامي السني والشيعي، وعلى الفكر الإنساني بتعدد دياناته.. الإسلام والمسيحية واليهودية وحتى الوثنية.

وسر قوة هذا الفكر الصوفي لابن عربي يكمن في رمزيته، وفي مجالات التأويل الرحبة التي يفتحها على العقل وعلى القلب الإنساني فيمكنهما من الغوص في غياهب المطلق لأجل الترقي نحو نور الكمال. لهذا يقول الكاتب خميس أن نص ابن عربي يتواجد اليوم في معظم المجالات المعرفية والفنية، وفي الفلسفة وفي الرواية وفي القصة والشعر وفي الموسيقى والرسم، ناهيك عن حضوره القوى في مجاله الحيوي الأول وهو المجال الديني الصوفي الذي يعتبر في نظر أصحابه هو الدين بعينه.

الجدير بالذكر أن المفكر العلماني نصر حامد أبو زيد[22] طرح سؤالا هاما يقول: لماذا ابن عربي ألان؟ وكانت إجابته مركزة على ما عرفه العالم اليوم من أحداث وتطورات علمية وتقنية مذهلة، وما أحدثه من تغييرات على مختلف الأصعدة مما شكل القاعدة الأساسية لمبررات استحضار أفكار ابن عربي خاصة والخطاب الصوفي بصورة عامة.

فالإنسانية – كما يقول أبو زيد – تعاني من القلق حول مستقبلها بعد أن خابت أمالها في "التنوير" والذي تحول إلى أيدلوجية سببت الاستعمار وما ارتبط به من تقهقر للعالم التخلف وسببت

الدمار والأزمات للعالم المتقدم. ثم أن التقدم التكنولوجي الهائل حول عالم اليوم إلى فضاء مترابط الأجزاء من جهة، وأظهر من جهة أخرى فروقا شاسعة بين البشر وأثمر ظلما واستبدادا منظرا له مع مزاعم الديمقراطية والعدالة، وأثمر أيضا عولمة تحكمها حتمية قوانين اقتصادية وسياسية واجتماعية جائرة، مما أدى بالضرورة لاعتماد الحل الديني، غير أن هذا الحل أدى في أخر المطاف إلى التطرف والعنف وأثمر ظاهرة الإرهاب، ليأتي في النهاية البديل الصوفي لابن عربي بما طرحه من روحانيات تسمو بالإنسان وتدعو إلى التسامح والتكامل بدلا من التناقض المفضي إلى الصراع.

وقد أدهشني الصديق الدكتور عبد القادر الرفاعي - أحد أكثر المقربين من الأستاذ الراحل محمد إبراهيم نقد السكرتير السابق للحزب الشيوعي السوداني - بأن الأستاذ نقد في الأيام الأخيرة من حياته كان عاكفا على قراءة ما أنتجه محي الدين ابن عربي من كتب ودراسات! ولعله كان ينوي كتابة شيء عنه قبل وفاته والله أعلم.

لقد عاش ابن عربي في الأندلس ذروة الصراع بين المسيحية والإسلام منْ جهة، وبين الاتجاهات المختلفة في هذا المجتمع الأندلسي من جهة أخرى: بين سُنّة وشِيعَة وأشعرية ومعتزلة وفقهاء وفلاسفة ومتصوِّفَة. وحين غادَرَ وطنه الأصلي الأندلس متجهاً إلى الشرق لم يجد الأحوال في العالم الإسلامي الفسيح تختلف كثيراً عمّا تركَهُ في بلاده الأصلية. في ظل هذا الجو الملبد بالصّراع على جميع المستويات اجتماعياً وسياسياً ودينياً وفكرياً بل ولغويّاً عاش ابن عربي وتشكلت فلسفته ونظرته نحو العالم والكون.

يقول نصر حامد أبو زيد إنّ تنقُّل ابن عربـــي الدائم من مكانٍ إلى مكان باستثناء فترة الاستقرار الطويلة نسبياً والتي قضاها في مكة في زيارته الثانية كان يعكس هذا التوتر والقلق وعــدم الاســتقرار. وليس من الغريب في مثل هذه الظروف أنْ يُولد ابــن عربـــــي في الأندلس ويتزوج للمرَّة الثانية في قونية مِنْ أم تلميذه صــدر الــدين القونوي وليِستْقر بعض الوقت بمكّة ثم يموت ويدفَنْ في دمشق.

الفصل الثاني

موقف ابن عربي
من الأنوثة والذُّكُورة

في لغتنا العربية نجد أن كلمات الجنّة والابتسامة والصحة والحياة والمَودّة والرَّحمة والراحة والمُتعة كلّها مُؤنثة وعكسها تماماً: الجحيم والحزن والمَرَض والموت والحقد والحسد والغضب والتعب والنكد كلها مذكّر.

قَد يعجَب المرء إذا علم أنّ ابن عربي اعتبر الذكورة والأنوثة ليستا مِنْ خصائص النوع الإنساني لسبب بسيط يقول إن الأعضاء التناسلية لكُلٍّ مِنْهُما تجدهما أيضاً في عالم الحيوان، لِذلك لا يعتبران مِنْ خصائص النُّوع الإنساني وحده لمشاركة الحيوانات كلها في ذلك.

ورغم بداهة هذه الحقيقة العلميّة، إلاّ أنّ ابن عربي يحاوِل إعطاء المعنيين بُعداً لغويّاً، فيربِطُ أوّلاً بين الأنوثة والمرأة والذكورة والرجل فيرجِع اسم الذكر إلى الذكير أي ما يقبل الوصف بالحدّة والشِّدَّة والصعوبة، مقابل ما ينعت اسم الأنثى بالأنيث أي الليونة والسهولة. ويُقالُ في لسان العرب إنّ المرأة سُمِّيَت أنثى بسبب لينِها، لأنّ اللغة في دلالتها للذكورة والأنوثة تنطلق بالدرجة الأولى من الصفة وليس من الجسم نفسه كمادة.

هذا الاختلاف الجنسي جعل بعض فقهاء الدِّين يُقصون المرأة مِنْ إمامة الصلاة، ولكن ابن عربي يُقرّ بصحة إمامة المرأة للصَّلاة لأنه لا يَجد لهذا الإقصاء سنَد في الكلام الإلهي (أي القرآن الكريم). وكما يَرَى أصحاب المذهَب الحنفِي أنّ المرأة لا يحِقُّ لها أن تُبرمَ عقداً

كالزوج لأنّها لا تنكح، لأنّ الوطء فعل والمرأة لا تفعله إنّمَا هي مفعول بها. فيرى ابن عربي عكس ذلك لأنّ هذا الإقْصاء يُجَرِّدها مِنْ حقّها في التّأهل الإنساني بسبب اختلاف شكل جنسها عن الرجُل رغم أنّ الفرق هُنا حيواني، ولا يَندَرج ضمن الحقائق البشرية كملكات الكلام والعقل وغيرهما.

وسنستعرض لاَحِقاً في الفصل الرابع ما يجمع ويفرِّق المرأة عن الرجُل. ولكن ما يهمنا في الأمر أنّ الذكورة تُعبِّر عن الفعالية والضرورة والثبات، والأنوثة تُعبِّر عن الانفعال والإمكان والتنوُّع. فالانفعال يكون للأنوثة والفعالية تكون للذكورة، وهي ثنائية تقترن بعالم المادة لأنّهَا تخضَع للتوالد الطبيعي حيثُ لاَ تُولد الحياة إلاّ باجتماع الأُنْثى والذكر، وهِي ثنائية لعَالَمين مُتمَايزَين ومُتَوازيين يَختَرِقان الوجود على جميع مستوياته.

أمّا ابن عربي فيرى أنّ الوجود الحق يرجع إلى الله تعالى، أمّا سواه من موجودات فهي مُجرَّد أعراض أو نسبة قابلة للزوال عن حاملها (كالسمنة) أو أُخرى لا تزُول إلاّ بزوال حاملها (كاللون بالنسبة للإنسان). لذلك يَعتَبِر ابن عربي في هذا السِّياق أنّ الذُكورَة والأنوثَة مُجَرّد عَرَضَين بالنسبة للإنسان تُعَبِّران عن امتداد الحيواني في البشري وتُجسِّدان الفرق بين الذكر والأنثى في عالم الحيوان، لذلك ينفي ابن عربي عن الاختلاف الجنسي بين المرأة والرجل أيْ تأثير في إنسانيتهما، ولا يعترف بالتمييز بين المرأة والرجل لأنّ جوهر إنسانيتهما يكْمُن في نظره في تجاوزهما للحيواني وعدم الخضوع لأحكامه. ويعتبر الذُّكورة والأنوثة الطبيعيتين كفاعلية ذكورية وانفعالية أنوثية، ينعكسان عبر اختلاف في الصِّفة يلخِّصه ابن

عربـــي في القهر والغضب والشدّة عند الذكر، واللطـــف والرِّضـــا واللين عند الأنثى.. ممّا يُضفِي عليهما رمزية تتجَاوز عـــالم المــادة، ويرتفع بها إلى عالم المطلق وتعلّقها بالوجود الإلهي باعتباره الأصـــل لكلّ موجود، ثم ينتقل إلى الحاجة الغريزية والرغبة فيؤكد أنّ الرغبـــة إنسانية، والحاجة الغريزية حيوانيّة.

ويقول ابن عربـــي بأنّ الوصل بين المرأة والرجُل هـــو لمجـــرّد قضاء حاجة غريزية ويقتُل في الإنسان روحَه أو حقيقته الإنســـانية، لأنّ الوصل الذي تحركه الحاجة الغريزية يقف حاجزاً أمـــام معرفـــة الإنسان بذاته وبالآخر (محل الالتذاذ) ويؤدي هذا إلى غياب معـــنى وروح المسألة. وعند ابن عربـــي إنّ ما يميِّز الكائن البشري عن باقي الكائنات هو الفصْل بين الحاجة الغريزية والرغبة الـــتي تســـتند إلى التمييز بين الحب الطبيعي (الذي يخضع للـــروح الحيـــواني وشـــهوة الغريزة) وبين الحب الروحي (الذي يخضع للتشبه بالمحبوب والقيـــام بحقه) وبين الحب الإلهي (الذي يخضع للعلاقـــة التبادليـــة بـــين الله والإنسان). فكل موجودات الكون تخضع لحكم الحـــب الطبيعـــي وتقف عند حدوده، أمّا الإنسان فإنه مهيّأٌ في نظره للارتقـــاء نحـــو الحب الروحي أو الحب الإلهي، وبذلك ينفصل الإنسان ويتميّز عـــن كائنات الطبيعة الأخرى.

طرحت الكاتبة نـــزهة براضة سؤالاً في هذا السياق يقول مـــا هي المؤثرات التي مكّنَتْ ابن عربـــي منْ تناول موضـــوع الأنوثـــة والذكورة بهذا العمق والشمولية في عصر تغيب فيه الشروط الماديـــة لبلورة تصور ينبني على التناغم بين الذكورة والأنوثة؟ وينبني أيضـــاً على المساواة بين المرأة والرجل؟

وعندها أنّ الإجابة بكل بساطة تقول إنّ الكشف العرفاني الصوفي عند الشيخ الأكبر هو الذي عرّى الحقائق أمامه. ولكن في نظر البعض هنالك مؤثرات أخرى لا يمكن إغفالها منها: ما ظل يتمتع به الرجل من قابلية للانفتاح وما اكتسبه من عمق معرفي وكذلك تأثير البيئة الأندلسية التي تربى فيها ابن عربي مع ما تميّزَت به من تعايُش للديانات والثقافات.

بالإضافة لذلك تنَقُّل ابن عربي بين الشرق والغرب مما أورثه حصيلة فكرية عظيمة وما اغترفه الشيخ من كل أنْسَاق التفكير التي سبقته أو عاصرته، ووظَّفَها توظيفاً جيداً، سواء اتفق معها الناس أو اختلفوا. ولكن لا يمكن إغفال تأثير القضية المحورية التي شيّد عليها ابن عربي كل تفكيره، والمتمثلة في كون الحب أساساً للوجود. وجَعَلَ الأنوثة والذكورة وجهين يسريان في العوالم والكائنات ويظهران حين يلتقي الوجهان عبر الحب والنكاح، بخلاف ما سطَّره التاريخ من مقولات تأثرت بالقيم السائدة حيث ارتبطت الشِّدَّة والعَظَمة والبَطش والسِّيادَة والكِبرِيَاء بعالَمِ الرِّجال، وارتبط اللُّطف والولادة والضَعْف والخضوع والقبُول بعالم النساء.

التركيز على الحب كمصدر للوجود وسبيل للمعرفة سمح لابن عربي كما ترى الكاتبة نزهة براضة ببنَاء نظرية متميزة للإنسان تقوم على إرجاع حقيقته إلى الأنوثة والانفعال، وهذا يعني أنّ الاختلاف بين الأنوثة والذكورة لا يتعلق بطبيعة بشرية ثابتة بل بمقامَات معرفية.

وبلغة العصر نقول أنه يتعلّق بعقليات وسلوكِيّات ثقافية. وتقول الكاتبة أنّ هذه النظرة الروحية المحروسة بلغة ثيولوجية (دينية) لا

تتعارض مع المقارنات العلمية. والدليل على ذلك أنّ العلم المعاصر قد بلوَرَ أطروحات تسير في نفس سياق توجُّهات الشيخ الأكبر. فقد أكّدَ علم الوراثة مثلا أنّ جميع الحيوانات ذوات الثدي بما فيها الإنسان نفسه تحمل الكروموسومات (xx) للأنثى و(xy) للذكر، ويظل الكرموسوم (x) حاضراً في كل من الأنثى والذّكَر، مما يعني أنّ الأنوثة. عنصر مكَوِّن لجميع الثدييات بما فيها البشر.

وعلى مستوى تكوين الكروموسومات للجنين فإنّ التماثل وغياب الاختلاف يشكلان محطة أولى للكائن البشري، إذ أنّ التمايز الجنسي الذي يحدثه الكروموسوم (y) لا يظهر إلاّ في الأسبوع السادس أو السابع للحمل، وهذا يؤكّد علمياً أنّ الجنين في أصلِه ذو تكوين كروموسومي (xx) أيْ ذو أصل أنثوي. ومِنْ هنا جاءتْ أصالة المرأة.

كما أن اكتشافات عِلْم الوراثة وأبحاث أُخرى عديدة أَدَّتْ إلى أطروحة تقول أن المرأة هِيَ أصل طبيعي في الإنسان، وأنّ الذكورة تَظَل غريبة عن الذّات أوْ الشّخصية الإنسانية في فكر ابن عربي. ولكن هذا لا يعني إلغائها بحُكْم أنّها وجه من وجهَي الوجود ليصِير الإنسان صورة جامعة للذُّكورة والأنوثة.

كَمَا يبرز عند سلطان العارفين مفهوم آخر خارج هذا النطاق هو مفهوم الإنسان الخُنْثى، وهذا له تفسيره العلمي بأنّ كل إنسان رجلاً أو امرأة يصنع هرمونات جنسية من نمطين هما هرمون الذُّكورة testogene (تيستوجين) وهرمون الأنوثة oestrogene (أوستروجين)، فإذا جمع الإنسان بين الهرمونين في جسم واحد يُعتَبَر هذا الإنسان خُنْثى.

الفصل الثالث

حواء هي أصل آدم

جاء في الحديث الشريف "أن الله خلق آدم على صورته". وابن عربي يستخدم اسم آدم للدلالة على أول إنسان ظهر في الوجود باعتباره أب البشر وباعتباره الإنسان الكامل الذي تتجلى فيه صورة الرحمن. وعندما سألوا محمد ابن علي ابن الحسن الملقب بالحكيم الترمذي المتوفى عام 285 هـ عن صفة آدم؟ قال: إن شئت صفته الحضرة الإلهية أو مجموع الأسماء الإلهية، وبذلك يكون تحت حكم الاسم الإلهي (الله) لأن هذا الاسم هو الاسم الجامع لجميع حقائق الأسماء كلها. وفي هذا السياق نفهم معنى الآية التي تقول ﴿... إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً...﴾ [البقرة: 30]. والتي تجعل من آدم نائبا للحق الظاهر بصورته.

أما توجه الله تعالى بيديه على خلق الإنسان الكامل كما جاء في قوله: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴾ [ص: 75]. يؤول ابن عربي اليدين الإلهيتين بمقام زوجية الإنسان التي تجد أسسها في الكلام الإلهي الذي أشار للتركيب في الكائن البشري باستخدامه لعبارة "لما خلقت بيدي" حينما تعلق الأمر بآدم الذي اجتمعت فيه حقائق العالم بأسره. وخص الله آدم بعلم الأسماء كلها التي لها توجه إلى العالم.

وقد تجسد هذا المقام في آدم فظهرت فيه المقامات كلها، إذ كان جامعاً في نظر ابن عربي للقبضتين وهما قبضة الوفاق وقبضة الخلاف التي تكون من نقيضهما الإنسان، الذي يرجع إلى الأصل

الإنساني الواحد المتمثل في النفس الواحدة التي خُلِقَ منها النوع البشري مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ...﴾ [النساء: 1].

وبذلك يضم الإنسان الذكورة والأنوثة أو الفاعلية والانفعال. فالنفس الواحدة هو آدم ولا يوجد شيء يوضح أن آدم رجل أو مجرد ذكر، و لم يرد اسم حواء في القرآن، مما يثبت كما يقول ابن عربي أن الزوجية الواردة في الآية السابقة يقصد بها المرأة والرجل.

ولما كانت حواء عين آدم بمعنى أنها كانت عين ضلعه، فما كان آدم الأب، واحد في صورتين مختلفتين. فعين حواء هي عين آدم وانفصال حواء عن آدم هي عين آدم. فما صدرنا إلا عن أب واحد، والعالم كله صدر عن إله واحد. فالعين الواحدة كثيرة النسب ﴿... وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ...﴾ [النساء: 1]. استخدام رمز العين لتفسير الصلة بين حواء وآدم، يقودنا لغوياً إلى معنى كلمة "عين" والتي قد تعني عضو النظر ومحل الرؤية أو أصل الشيء وذاته ونفسه ومثله.

أما الوقوف عند رمزية "العين" فيمكن في نظر ابن عربي فهمها في سياقات متنوعة: أولها بمعنى أن حواء أصل آدم لما تتمتع به من قدرة على الولادة نتجت عنها كل الكائنات البشرية، وثانيها بمعنى المماثلة بين حواء وآدم وانعدام الفرق بينهما. وثالثهما بمعنى أن حواء نفس آدم وذاته للتشابه الدلالي بين كلمتي عين ونفس. فإذا كان القصد من عبارة "حواء عين آدم" أنها نفسه، فذلك يعني أنها أنوثته لأن للنفس عند ابن عربي معنى الأنوثة في كل إنسان. وقد قال في أحد كتبه أن النفوس كلها في مقام الأنوثة لمن عقل.

وقال أيضا في الفتوحات المكيــة (الجـــزء الأول ص 507): أن النفس غالبا ما تعتبر الجانب المنحط في الإنسان بحجــة أن الـــنفس لأمارة بالسوء والواردة في سورة يوسف ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ ...﴾ [يوســف: 53]. يقــول ابـــن عربـــي أن الله ليس هو القائل بل التي قالت هي زليخة امرأة العزيـــز لتبعد عنها تهمة مراودة يوسف عن نفسه.

كل هذه الدلالات تعني أن حواء هي أصل آدم ونفسه ومثلـــه من منطلق قدرة المرأة على الولادة، وهي مثله في النفس الواحدة (من منطلق خلقكم من نفس واحدة) فتشكل الأنوثة بذلك مرآة ينظـــر فيها الرجل إلى ذاته ويشاهد تميزه ويعي ذكورته وبذلك تكون حواء هي آدم في صورة مغايرة، ويكون آدم هو حواء في رتب مختلفة.

أما التصريح بأن حواء (عين) آدم لأنها عين ضلعه، فيقول ابـــن عربـــي انه لا وجود لكلمة ضلع في القرآن، الذي يؤكد أن المـــرأة والرجل من نفس واحدة كما ورد في سورة النساء[1]. ابن عربـــــي يعتبر في تصوره أن الأنوثة ترمز إلى الميل والانحناء، واللذين يتجسدان في الضلع، والدالين على الاستدارة المتجسدة في استدارة الرحم.

والحديث النبوي الذي رواه البخاري شبه المرأة بالضلع من دون إضافتها إلى آدم أو الرجل قائلا: "أن المرأة كالضلع" لما فيها من انحناء وحنو. وكلمة ضلع لم ترد أساسا في القـــرآن. وبـــذلك يمثـــل آدم موجوداً واحداً بصورتين مختلفتين تغلب عليه الوحدة مـــن حيـــث إنسانيته، ويبرز فيه اختلاف رمزي من جيث ذكورته وأنوثتـــه. وفي نهاية المطاف لأن حواء هي القادرة الوحيدة على الولادة، فتصبح في نظر ابن عربـــي هي أصل آدم بل أصل كل البشر.

الفصل الربع

ما يَجْمَع ويُفرِّق المرأة عنِ الرجل

في دراسة مُهمّة أجرتها جامعة بنسلفانيا بالولايات المتّحدة الأمريكية(9) تمّ الكشْف عن الفرق بين طريقة تفكير الرجل وطريقة تفكير المرأة والتي قَدْ تُسَبِّب أحياناً نشوء حواجز في التفاهُم بينهما. وتُؤكِّد الدراسة أنّ الخلاف بينهما يكمن في أصل الخلقة نفسها.

وتَرى هذه الدراسة أنّ تلك الحقيقة العلمية المُؤكَّدَة تنطبق على معظم الحالات، ولا علاقة لها بهذا المجتمع أو ذاك، أو بتلك الثقافة أو التربية أو تلك، أو بهذا الدين أو ذاك. وقد لخَّصُوا تلك الحقيقة في جملة واحدة مفيدة ومختصرة مفادها أنّ عقل الرجل عبارة عن "صندوق" وعقل المرأة عبارة عن "شبكة"، وهذا هو الفارق الأساسي بينهما.

فعقل الرجل مكون من عدة صناديق مُحْكَمة الإغلاق وغير مختلطة مع بعضها، فهناك صندوق للسيارة وصندوق للبيت، وصندوق للأهل وصندوق للعَمَل وصندوق للأولاد وصندوق للأسرة وصندوق للأصدقاء وصندوق للمَقْهَى... الخ. فإذا أراد الرجل شيئاً معينا فإنه يذْهَب لذلك الصندوق المَعْنِي ويفتَحه ويرَكِّز عليه. وعندما يكون داخل هذا الصندوق فإنَّه لا يرى شيئاً خارجه، وإذا انتهَى مِن غرضِه أغلَقه بإحكام ثُمَّ شَرَع في فتْح صندوق آخر وهكذا دواليك. وهذا ما يفسِّر لنا أنّ الرجل عندَما يكون في عمله فإنّه لا ينشغل كثيراً بما تقوله زوجته في التلفون عمّا حدث لها وللأولاد. وإذا كان يصلح سيارته فيكون أقل اهتماماً بما يحدث

لأقاربه، وعندما يشاهد مباراة لكرة القدم فهو لا يهتَم كثيراً بأنّ الأكل على النار يحترق.

والطريف في صناديق الرجل، أنّ لديه صندوق اسمه "صندوق اللاشيء"، فهو يستطيع أنْ يفتح هذا الصندوق ثم يختفي فيه عقلياً، ولو بقيَ موجوداً بجسدِهِ وسلوكه خارج هذا الصندوق.

أمّا عقل المرأة فهو شيء آخر تماما وهو عبارة عن مجموعة من النقاط الشبكية المتقاطعة والمتصلة جميعاً في نفس الوقت ببعضها البعض والنشطة دائماً، وكُل نقطة في هذه الشبكة متّصلة بجميع النقاط الأخرى مثل صفحة مليئة بالرّوابط على شبكة الإنترنت. فالمرأة يُمكن أنْ تطبُخ وتتحدّث في التلفون وتشاهد مسلسلاً في التلفزيون في نفس الوقت. ويستحيل على الرجل في العادة أنْ يفعل ذلك. كما أنّ المرأة يمكن أنْ تنتَقِل مِنْ حالة إلى حَالة بسرعة ودقة ودونَ خسائر كبيرَة. ويبدو هذا واضحاً عندمَا تتحدَّث المرأة عمَّا فعلتْه مَعَ صديقَاتها وعنْ مستَوى أولادها الدراسي وعن لون ومواصفات الفستان والثوب الذي سترتديه في حفلة الغد... وكل ذلك يتم في مكالمة تلفونية واحدة بسلاسة متناهية وبدون أي إرهاق عقلي، وهو ما لا يستطيعه أكثر الرجال احترافاً وتدريباً.

والأخطَر مِنْ ذلك أنّ هذه الشبكة الخاصّة بالمرأة والمتناهية التعقيد تعمَل دائماً ولا تتَوقّف عنِ العمَل حتّى أثناء النوم، لذلك نجِد أنّ أحلام المرأة أكثر تفصيلاً ودقة من أحلام الرجُل.

وخلاصة الأمر أنّ الرجل "الصندوقي" مُصَمَّم بالفطرة على الأخْذ، والمرأة "الشبكيّة" مُصَمَّمَة بالفطرَة على العطاء. ولولا هذه

الفطرة لما تمكّنت المرأة من العنايَة بأبنَائها، فسبحان الله موزع الأدوار وخالق كل شيء.

ومِنَ الناحية الأخرى توصَّلت الباحثة الكندية أدريانا مندريك مِنْ قسم الطِّب النفسي في جامعة مونتريال[12] إلى استنتاج مهم جدا مفـــاده أنّ عقل المرأة أكثر نشاطاً مِنْ عقل الرجل. وهذا الاستنتاج العِلمِي جاء ردّاً على ما يُقال كثيراً ومُنذُ قديم الزمَان بأنّ الرجال يعرفونَ أكثر مِـــنَ النساء وقادرون على التفكير في أيّ شيء بعكس المرأة.

صحيح أنّ الجهاز العصبـــي في حالة الراحة يُكَـــوّن نشـــاط الخلايا العصبية في المخ (والذي يعرف باسم الشـــبكة الافتراضـــية)، ويكون أكبر عند النساء مِنه عند الرجال. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه: هل هذا يعني أنّ عقل الأنثى لا يرتـــاح أبـــداً أو لا يعـــرف الراحة؟ في الواقع إنّ المسألة نسبية وذات عِدّة مستويات كمَا تقـــول الباحثة الكندية.

الجدير بالذّكر أنّ هذه الباحثة التي هيَ أصـــلاً مُتَخصّصـــة في مرض انفصام الشخصية، أجرت دراسة على المصابين بهذا المرض مِنَ الجنسين لمقارنة نشاطهم الدماغي في حالة الحركة وفي حالة الراحـــة. وقد تَطَلّب ذلك الاستعانة بأشخاص أصِحَّاء لمقارنة النتائج. وهكذا اجتمع 12 رجلا وامرأة غير منفصمي الشخصية وتتراوح أعمـــارهم بين 25 و45 سنة لإنجاز مُهِمّة تَنَاوُب عقلية انطلاقاً من مُجَسَّم ثلاثي الأبعاد، بينما يتم قياس نشاطهم الدماغي بواســـطة جهـــاز الـــرنين المغناطيسي. وقد اتُّخِذ نفس هذا الإجراء لقيـــاس نشـــاط الخلايـــا العصبية بينما كانت العينة في راحة بين التمـــارين فجـــاء اســـتنتاج الباحثة وفريقها كالآتي:

"في حالة راحة الجهاز العصبي كانت النساء يفكرن في ما سينجزنه بعد ذلك، في حين كان الرجال في حالة استرخاءٍ تام دون أي تفكير، وهذا يعني بصريح العبارة في المحصلة النهائية أنّ عقول النساء أكثر نشاطاً مِنْ عقول الرجال".

وذكرت الباحثة الكندية أيضاً أنّ فريقها لَمْ يتمكن مِنْ تحديد درجة تأثير الضغوط الاجتماعية ودور الهورمونات البيولوجية الأخرى كـ (الاستروجين والتستوستيرون) في تفسير هذا الاختلاف بين النساء والرجال، ولكنها أشارت إلى أنّ هذه النتيجة لا تدعو للاستغراب لكون المرأة مهتمة وقادرة أكثر من الرجل بإدارة مهام متعددة في مجتمعنا الحاضر داخل وخارج المنزل[12].

وفي هذا السياق لا بد من التطرق لعلاقة البصمة الوراثية بالحامض النووي المعروف بالـ (دي.إن.أي DNA)[19]. من المؤكد أن البصمة الوراثية هي البنية الجينية التي تدل على هوية كل إنسان بعينه أو هي التركيب الوراثي الناتج من فحص الحامض النووي الواحد أو أكثر من أنظمة الدلالات الوراثية وهي المادة الحاملة للعوامل الوراثية والجينات في الكائنات الحية وتنتقل من الآباء إلى الأبناء أو من الأصول إلى الفروع، وهي وسيلة لا تكاد تخطئ في التحقق من الشخصية والوالدية البيولوجية وتحديد شخصية كل فرد عن طريق تحليل الـ (دي.إن.أي) الذي يؤخذ من خلايا جسده.

وعلماء الطب الحديث يرون أنهم يستطيعون إثبات الشخصية والنسب بفحص الجينات الوراثية بنسبة تصل إلى 99.99%، عن طريق أخذ عينة من أجزاء الإنسان بمقدار رأس الدبوس من البول أو الدم أو الشعر أو المني أو العظم أو اللعاب أو خلايا الكلية أو غير

ذلك. وبعد أخذ هذه العينة يتم تحليلها وفحص ما تحتوي عليه من كروموسومات أي صبغيات تحمل الصفات الوراثية. وقد دلت الاكتشافات الطبية أنه يوجد في داخل النواة في خلية الإنسان 46 من الكروموسومات وكل واحد منها يحتوي على عدد كبير جدا من الجينات الوراثية التي قد تبلغ في الخلية البشرية الواحدة مائة ألف مورثة جينية هي التي تتحكم في صفات الإنسان والطريقة التي يعمل بها.

وقد أثبتت التجارب الطبية الحديثة أن لكل إنسان جينوماً بشرياً يختص به دون سواه لا يمكن أن يتشابه فيه مع غيره حتى إن كانا توأمين. والـ (46) كروموسومات يرث نصفها (23) عن أبيه بواسطة الحيوان المنوي، والنصف الآخر وهي (23) يرثها عن أمه بواسطة البويضة فينتج عن ذلك كروموسومات خاصة به لا تتطابق مع كروموسومات أبيه أو أمه وإنما جاءت خليطاً منهما، وبهذا الاختلاط اكتسب صفة الاستقلالية عن والديه مع التشابه معهما في بعض الوجوه.

وقد أثبتت التجارب والفحوصات أيضاً وجود تشابه في الجينات بين الابن وأبويه، والذي يثبت طبياً بنوته لهما. وقد تُثْبُت بنوته لأحد والديه بناءً على التشابه الحاصل بينهما في المورثات الجينية.

تتكون كل بصمة وراثية من وحدات كيماوية ذات شقين محمولة في المورثات وموزعة بطريقة مميزة تفرق بدقة بارعة كل فرد من الناس عن الآخر. وتتكون البصمة الوراثية منذ فترة الانقسام في البويضة الملقحة بالحيوان المنوي وتبقى كما هي حتى بعد الموت.

ويرث كل فرد أحد شقي البصمة من الأب والآخر من الأم بحيث يُكَوِّن الشقان بصمة جديدة، ينقل الفرد أحد شقيها لأبنائه وهكذا.

وجاء أيضا في دراسة سويدية أجريت في معهد كارولينسكا باستوكهولم – ولكن في سياق مغاير– أن طلب الزوجات من أزواجهن الطلاق نابع من تكوين المرأة أساساً، حيث أثبت العلماء أن هنالك جين معين في تكوين كل أنثى هو الذي يحدد رغبتها في الاستقرار والبقاء مع العلاقة الزوجية أو رغبتها في طلب الطلاق.

وتقول هذه الدراسة التي أجريت على أكثر من 1800 امرأة حول العالم ومتزوجة من فترة سنة إلى خمس سنوات، ومن خلال فحص الحامض النووي لهن، أن الجين الذي يستقبل هورمون الأوكسيتوسين عند كل امرأة هو ما يعزز مشاعر الحب والمودة مع الزوج أو يزيد الكراهية له أو النفور من العلاقة العاطفية معه. كما أن هذا الهرمون يزداد طبيعيا بمجرد ولادة الأم لطفلها، الشيء الذي يولد كَمّاً هائلاً من المودة بداخلها ويقل تجاه زوجها في حالة رغبتها في الحصول على الطلاق.

وأوضحت الدراسة أيضا أن 50% من النساء اللاتي يحملن اختلافاً وراثياً في الجينات المشتركة المستقبِلَة لهٰذا الهورمون من المرجح أن يتعرضن لأزمة زواج أو يطلبن الطلاق، كما كان الرجال المتزوجون من هؤلاء النسوة أقل بكثير من غيرهم في الرضاء عن علاقاتهم الزوجية.

وأوضحت الدراسة أن طلب الطلاق لا يأتي إلا بعد قرار تأخذه المرأة دون أن يؤثر عليها أحد في معظم الأحيان. كما تم اكتشاف الحقيقة التي تقول أن لهذا الجين الأنثوي شبيهاً عند الذكور، ويكون

مسئولاً أيضاً عن وفاء كل رجل نحو زوجته أو عدمه، مما جعل الدراسة تتجه لدعم المقولة التي تقول "صدق من قال أن الخيانة تجري في دماء الرجال وأن الطلاق يجري في جينات النساء".

من المعروف أن النساء يكن دائما في المتوسط أطول عمراً من الرجال. ولسبر غور هذي المقولة، تشير دراسة جديدة[18] إلى أن سبب الحياة الطويلة للنساء (رغم أن الأعمار بيد الله) ربما يعود لأن جزءا مهماً من خلايا النساء به قليل من العيوب مقارنة بالرجال.

وقد اكتشف الباحثون أن العيوب هي في جزء من "غرف المحرك" للخلايا المعروفة باسم "الميتوكوندريا" الذي له أثر أكبر على الرجال من النساء. وهذا يرجع إلى أن العوامل الوراثية للمرأة تأتي من الأم فقط، أي من الخلايا الضارة بالرجال وليس للنساء، وتنزلق عبر الشبكة وببطء عبر الزمن، لتدمر صحة الخلايا الذكورية.

ويقول كبير العلماء د. دامين داولنق أنه بينما يتلقى الأطفال نسخاً من معظم جيناتهم الوراثية من الأب والأم، لكنهم يتلقون فقط جينات "الميتوكوندريا" من أمهاتهم. وهذا يعني أن عملية السيطرة على نوعية النشأة والمعروفة بالاختيار الطبيعي، تفحص فقط نوعية جينات "الميتوكوندريا" في الأم. وإذا حدث تغير في "الميتوكوندريا" والذي يضر بالآباء ولا يضر بالأمهات، فإن هذا التغير سينزلق عبر الاختيار الطبيعي دون ملاحظة، وعبر آلاف الأجيال تتراكم هذه التغيرات التي تضر بالذكور فقط. وتعد هذه الاكتشافات تقدماً كبيراً في علم الأحياء.

كل هذا يؤدي إلى تراكم التغيرات التي جعلت الذكور يشيخون أسرع ويعيشون حياة أقصر من النساء. كما اتضح أنّ

النساء المعمرات في أنحاء العالم يصل عددهن في المتوسط إلى تسعة أضعاف عدد الرجال فوق المائة سنة.

وجاء في مقال بموقع سيدتي نت بأنّ كثيراً مِنَ الرجال يدّعُونَ أنّهم يفهمون كل شيء عَنِ المرأة، ولكن الحقائق والدراسات أوضحت أنّ نسبة 65% مِن الرجال لا يفهمون إلاّ القليل جداً عن عَالَم المرأة. وبالرّغم مِن وجود أوجُه تشابه بين الجنسين فإنّ الاختلاف بينهما ما زال كبيراً، ليس الآن فقط بل ومُنذُ الأزل.

وبالمقابل نجد أنّ المرأة تفهم الرجال أكثر وتستطيع أن تتعرّف على عالَمهم بسهولة جدّاً، نظراً للسطحية في تصرفاهم كما تقول الدراسات التي أجريت وخاصة تلك التي نشرها موقع يورتانجو البرازيلي على الإنترنت والمشهور بدراساته الكثيرة عَنِ المرأة والرجل، والتي أهمّها الدراسة التي تقول إنّ خيال المرأة أوسَع بكثير جداً مِنَ الرجل، والذي جعلها أكثر اهتماماً بالتفاصيل الدقيقة وأكثر جياشة في عواطفها[14].

هذا يذكرنا بما طرحه القرآن الكريم من مسألة متى تكون المرأة ومتى لا تكون؟ الشيء الذي يعكس دقة الخطاب القرآني وبلاغته وإعجازه. وعند استقراء الآيات القرآنية التي جاء فيهما اللفظان، نلاحظ أن لفظ" زوجة" يطلق على المرأة إذا كانت الزوجية تامة بينها وبين زوجها، وكان التوافق والانسجام تاماً بينهما بدون اختلاف ديني أو نفسي أو جنسي. فإن لم يكن التوافق والانسجام كاملا، ولم تكن الزوجية متحققة بينهما، فان القرآن يطلق عليها لفظ "امرأة" وليست زوجة، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا

﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: 21] وبهذا الاعتبار جعلت حواء زوجاً لآدم في قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ...﴾ [البقرة: 35].

فإذا لم يتحقق الانسجام والتوافق بين الزوجين لأي مانع من الموانع، فإن القرآن يسمي الأنثى (امرأة) وليس (زوجا). قال القرآن: ﴿... امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ...﴾ [التحريم: 10] ولم يقل زوج نوح أو زوج لوط: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا ...﴾ [التحريم: 10] لأنهما كافرتان بالله، مع أن كل واحدة منهما امرأة لنبي، ولكن كفرها لم يحقق الانسجام بينها وبين زوجها النبي. ولهذا ليست زوجا له إنما هي امرأة تحته. ونفس الشيء ينطبق على امرأة فرعون، لأنها كانت هي مؤمنة وهو كافرا بالله.

ومن روائع التعبير القرآني في التفريق بين زوج وامرأة ما جاء عن دعاء زكريا أن يرزقه ولداً يرثه. فقد كانت امرأته عاقراً لا تنجب، فاستجاب الله له وجعل امرأته بمعجزة منه قادرة على الإنجاب. وعندما كانت عاقراً أطلق عليها القرآن كلمة امرأة: ﴿... وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ [مريم: 5]. وعندما استجاب الله لدعائه وأنه سيرزق بغلام، أعاد الكلام عن عقم امرأته فقال: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: 40].

وحكمة إطلاق كلمة امرأة وليس زوجا على زوج زكريا، لأن الزوجية لم تتحقق في أتم صورها وحالاتها، رغم أنه نبي ورغم أنها مؤمنة. ولكن عدم التوافق والانسجام كان في عدم الإنجاب.

فإذا وجد مانع بيولوجي كالعقم عند أحد الزوجين فهذا يعني أن الزوجية لم تتحقق بصورة تامة لذلك أطلق عليها القرآن كلمة امرأة. ولكن بعدما زال المانع وأصلحها الله وولدت لزكريا ابنه يحيى أطلق عليها القرآن كلمة زوج: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ...﴾ [الأنبياء: 90].

أمّا الكاتب القطري المعروف والعميد الأسبق لكلية الشريعة بجامعة قطر الدكتور عبد الحميد الأنصاري، فقد فَنّد في رأيه بعض الأوهام الحاكمة للثقافة السياسية والاجتماعية السائدة في المجتمعات العربية وعلى رأسِها وَهْم أفضلية الرجل على المرأة. وهي الأوهام التي تساهم في صياغة العقل الجَمْعي للعرب وتُشَكّل نفسياتهم ووعيهم وتحدد اتجاهاتهم ومواقفهم تجاه الآخرين، مستنداً في ذلك إلى نصوص قرآنية يرى أنها فُسِّرَت تفسيراً خاطئاً مِن أهل الحديث والفقه كما يعتقد لتأكيد علو مكانة الرجل على المرأة.

وضَرَبَ الأنصاري مثلاً بالآية الكريمة التي تقول: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ...﴾ [آل عمران: 36]. وقد استنتج الفقهاء والمفسِّرون المُحْدَثِين منهم والقُدماء أنّ الأنثى دون الذكر في المكانة الاجتماعية وهذا يَمْنَح بدوره الرجل أولوية في كافّة الحقوق.

بَنوا على ذلك أحكاماً فقهية يراها الأنصاري ظالمة للمرأة. ويُبْدِي استغرابه لمشكلة اقتناع بعض النساء الفَقِيهَات العَالِمَات بامتياز الرجل ويدافعْنَ بحرارة عنه. ويضْرِب مثلاً بأستاذة ورئيسة قسم الفقه بجامعة الأزهر الدكتورة/سعاد صالح التي تقول إنّ الله نَفَى المساواة المطلقة بين الجنسين، وتستشهد بالآية المذكورة أيضاً.

ثم يتساءل: "هل القرآن الكريم ينتقص من المرأة ويجعل مكانتها دون الرجل؟" لأنّ ذلك في تقديره، غير متصور من دين خالد جاء بمبدأ المساواة بين البشر على أساس قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ...﴾ [الإسراء: 70]. ولأنه مِنْ لوازِم ومُقتضيات التكريم الإلهي المساواة في الحقوق والواجبات. ثم أنّ الخالق عزّ وجل هو القائل: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ...﴾ [آل عمران: 195].

قد يُقَال أنّ الرجل مَيَّزَهُ القرآن الكريم بالقوامة والشهادة والميراث (وحتّى هذه ناقشها وفَنّدَها سلطان العارفين ابن عربي كما سَيَرِد ذكره في هذا الكتاب) واعتبرها الأنصاري حالات تعد استثناءً من القاعدة ولا يقاس عليها. واستطرد قائلاً: إنّ هذا التمييز مَرَدُّه لاعتبارات موضوعية لا أفضلية جنس على آخر لأنّ القرآن الكريم لا يُفَضِّل جنساً على آخر، ويَعْتَبِر أنّ هذا الوهم بأفضلية الرجل على المرأة نشأ من مقولة امرأة عمران التي يرويها القرآن على لسانها: ﴿... وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ...﴾ وهذه ليست بحقيقة شرعية وقرآنية مقررة.

وأصل الموضوع أنّ أُمّ مريم نَذَرَت إنْ رزقها الله تعالى بولد فستهبه لخدمة المعبد، لكنّ الله تعالى رزقها بأنثى هي مريم، فأسقط في يدها واحتارت في كيفية الوفاء بنذرها واعتذرت إلى الله تعالى بأنّهَا رُزقَت بأنثى وهي لا تصلح لمهمة خدمة المعبد كالرجل. وقال تعالى: ﴿... وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ...﴾ تعظيماً وتقديراً للمرأة والتي هي مريم. فليس في الآية الكريمة ما يُشْعِر بالانتقاص مِنَ المرأة بل بالعكس فيها التقدير والتبجيل ورفعة المكانة.

ويعزي الأنصاري موقف المجتمعات العربية الذي يُنْشِئ أفـراد المجتمع على قبول أفضلية الرجل عبر ما يسـميه المفكـر البليهـي "الامتصاص الثقافي التلقائي" حيث تتم برمجة الأفراد على الاقتنـاع بامتياز الرجل ودونية المرأة عبر أسلوبين: الأسلوب الأول هو النمط التربوي السائد الذي يقبل التّفرقة بـين الأخ وأختـه في الحقـوق والواجبات، والأسلوب الثاني هو النمط التعليمي السائد الذي يُكرِّس وضعاً هامشياً لدور المرأة في الحياة العامة، ويَغْرِس في نفوس الطلاب منذ الصِّغر أنّ الرجل أكمل عقلاً وأحسن تصرفاً وأكثـر قـدرة في مقابل أنّ المرأة أكثر انقياداً لعاطفتها ولا تُحسن التصرُّف في المواقف الحياتية إلاّ بتوجيه ووصاية هذا الرجل. حتّى أنّ أهلنا في السـودان ابتدعوا مثلاً شعبياً يقول ما معناه: "حتّى لو تحولت المرأة إلى فـأس فلنْ تكسر الرأس!".

والآية القرآنية الثانية التي استشهد بها الأنصاري تقول:﴿... فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ...﴾ [طه: 117]. يرى أنصار التفرقة بين الجنسين في قولـه: ﴿... فَتَشْقَىٰٓ ...﴾ ولم يقل (فتشقيان) كدليل على أنّ الرجل وحده المسئول عن الكـدّ والعمل والشّقاء وأنّ المرأة مُنَزّهة منْ ذلك لأنّها مخلوقة للحنان والرّقة ولأنّ دورها في الحياة هو تهيئة المسكن المريح للرجل وأنّ خروجهـا للعمل يعتبر استثناءً. واعتبر الأنصاري أنّ ذلك فهماً مغْلُوطاً للآيـة لأنّ عِلّة (فتشقى) كون الخطاب لآدم، وأمّا القول بأنّ المرأة لا تشقى وخروجها للعمل فيه استثناء، فالمرأة على مرّ التاريخ البشري كانـت تعمل وتكدَح في مختلف المِهَنْ والحِرَف مِنْ زراعة ورعـي وسـقي وإعداد الطعام، وكانت تعمل وتشقى بجانب الرجل تشقى بشـقائه.

ثم أليس الحمل والولادة والرضاعة والتربية ورعاية البيت أمور داخلة في مفهوم الشّقَاء؟

إذاً أفضلية الرجل وامتيازه على المرأة هو وهم ثقافي مزمن ومستحكم وعلينا إذا أردنا صُنع المستقبل تَجَاوُزَه كما تَجَاوَزَه عَالِم المزدهرين، وكما تَجاوَزَه قبل مئات السنين سلطان العارفين محي الدين بن عربي كما سيأتي ذكره مُفصّلاً في هذه الدراسة.

ومِنَ المفارقات أيضاً ما جاء في الأنباء مؤخراً[10] أنّه خلال عقد مِنَ الزّمان مُنْذ سقوط نظام طالبان - الذي يُعَدّ مِنْ أكثر الحركات الإسلامية تطرُّفاً وعدَاءً للمرأة - عادَت الفتيات للمدارس التي كُنّ ممنوعات من الالتحاق بها، ولم يعُد قانون طالبان يفرض على النساء ارتداء البرقع، الذي أجمع معظم علماء الإسلام في العالَم أنّه عادة جاهلية لا علاقة لها بأي زي نسائي إسلامي خلاف الحجاب المتعارف عليه بكشف الوجه واليدين.

وبعد أنْ حققَت المرأة الأفغانية الكثير مِن المنجزات كارتفاع مستوى تمثيلها في مجلس النُّوّاب إلى 26% وهي نسبة تتجاوز المتوسط العالمي بـ 9% (المتوسط العالمي هو 17%)، وذهاب أكثر من 3 مليون فتاة إلى المدارس، ما زال النساء يواجهن مشاكل كثيرة وخطيرة.. كالعنف المنزلي والبدني والنفسي والجنسي، والزواج المبكر للأطفال والزواج القسري والتبادلي والتساهل مع قتل النساء بدافع الشّرف واغتصاب الفتيات ومنتهكي حقوق الإنسان، وإصدار قانون يسمح للأزواج في الأسر الشِّيعية بمنع المال والطعام عن الزوجات اللائي يرفُضْنَ الاستجابة لرغبَة أزوَاجهنّ الجنسية. ولكنّ المُلفِت للنّظر أنّه حتى بعد سقوط نظام طالبان أنّ نائباً في البرلمان

صَرَخَ بأعلى صوته في وجه نائبة برلمانية زميلة له قائلاً "اخرسي أنتِ ناقصة عقل".

فإذا عدنا إلى مقولات ابن عربـي في هذا السياق الخاص بما يجمع ويُفرِّق المرأة عن الرجل، نجده يستشهد بالحديث النبوي الذي يقول: "كَمُلَ من الرجال كثيرون ومن النساء مريم بنت عمران وآسيا امرأة فرعون" الذي يعني اشتراك المرأة والرجل في الإنسانية وفيما يترتب عنها من معرفة وأحكام وقيم تجعل المرأة تحقق الكمال مثلها مثل الرجل.

والكمال عند ابن عربـي هو اللحاق بالدرجة العليا ويُعْرَف ببلوغ درجة العلو. والعلو هنا بمعناه الرمزي الذي يخصّ الرجال مِمَّا يُفَسِّر سبب وصول كثير مِن الرجال وقليل من النساء إلى رتبة تَغلِب عليها الذكورة. ويستشهد ابن عربـي أيضاً بالحديث عن النبـي داود الذي صام يومين وأفطر يوماً وهذا كان صوم مريم عليها السلام، فإنّها رأت أنّ للرجال عليها درجة فقالت عسى أنْ أجعل هذا اليوم الثاني في الصوم في مقابلة تلك الدرجة، وقالت صوم اليومين منّي بمنزلة اليوم الواحد مِنَ الرجل فنالت مقام الرجال بذلك، فساوت النبـي داود في الفضيلة في الصوم. ويمثّل اختيار مريم للصوم لتحقق الكمال والنبوة علامة تدل على سيرها في سبيل كسب صفة التعالي أو العلو مِنْ خلال التجرُّد عن الطبيعي في الإنسان لأنّ الصوم عبادة تعُود لله لا للعبد استناداً إلى الحديث القدسي: "الصوم لي وأنا أجزي به" وهكذا تتجسد شهادته ﷺ لها بالكمال كما شهد به للرجال.

لكن ابن عربـي يقول حين تسلك المرأة النهج الرجولي فإنّها تفقد الطريق إلى ذاها وتعجز عن منافسة الرجل في موطنه. ويشير ابن

عربي إلى هذا المغزى عبر تفسيره للآية: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ * رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ... ﴾ [النور: 36-37]. ويرى أنّ هذه الآية موجهة إلى الإنسان (المرأة والرجل) من حيث هو رجولة، فاكتفى الله تعالى بذكر الرجال تشريفاً لهم وتنبيهاً على لُحُوق النساء بهم، فكمالهم مع الرجال قد سبق أنّ أكّدَه الحديث عن كمال مريم وآسيا امرأة فرعون.

يقول ابن عربي إنْ تَخَلُّق الإنسان بما يُوافق حقيقته البشرية يتطلب منه أن يبتدع أسلوباً سلوكياً يختلف عن النموذج الذكوري غير الملائم للكائن البشري. وضَرَب مثلاً بنموذجين من النساء: الأول النموذج الذكوري الذي حقّق النساء عن طَرِيقِهِ الكمال مع الرجال، والنموذج الثاني هو نموذج هاجر أم إسماعيل التي وضعت بصمتها على الشريعة وأسّست ركناً مِنْ أركان العبادة من حيث لم تقصد، فطافت بين الصفا والمروة وهرولت في بطن الوادي سبع مرات تنظر إلى مَنْ يُقْبِل عليها بالماء لعطش أَلَمّ بابنها إسماعيل فخافت عليه مِنَ الهلاك، فجعل الله سعيها هذا بين الصفا والمروة ركناً وشرعاً في مناسك الحج.

وبيّنَ نموذج هاجر أنّ المرأة تصون نفسها ما لم تتغرّب عن موطن الأنوثة، لأنّ هذا الاغتراب قد يقدح في أنوثتها، أمّا تَشَبُّه الرجل بالمرأة متى تَخَلّق بصفات اللطف والرحمة والمحبة فيشكّل تحقيقاً لإنسانيته ومعرفته بأصله الباطن المتجسد في المرأة وذلك للسر الباطني الذي وضعه الله فيها. ونحن لا نقصد التشبه المبتذل للرجال بالنساء الذي يعكس انحرافاً خلقياً وسلوكياً يحاربه الله ورسوله، بل نقصد التشبه الباطني الذي يحقق الرجل من خلاله أصله الأنثوي.

يقول ابن عربي ليس في العَالَم أعظم قوة من المرأة، لسر لا يعرفه إلاّ مَنْ عرِفَ لِمَ وُجِد العالَم؟ وبأي حركة أوجده الحقُّ تعالى؟ وأنّه جاء نتيجة عن مقدمتين فالناكح طالب والطالب مفتقر، والمنكوح مطلوب والمطلوب له عزة الافتقار إليه والشهوة غالبة.

تقول الباحثة نزهة براضة[4] أنّه غالباً ما تُقَاس قوة الإنسان بصلابة بنيته الجسدية وشدّة عضلاته وعنف قبضته، لتُحْسَب بذلك القوة للرجال ويُلْصَق الضعف للنساء. وهو منظور ينغلق وسط فهم حِسِّي للكائن البشري معطِّلاً قدرته على التسامي نحو الكلّي الرمزي تسامياً يدفعه إلى إدراك سر الحياة ومَكْمَن قوها. وهذا ما كشفه لنا سلطان العارفين بأنّ الله تعالى خصَّ المرأة بقوة في قوله تعالى في حقِّ السيدتين عائشة وحفصة: ﴿... وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: 4]. وتظاهرا عليه أي تَعَاونا عليه، وهذا كله في سياق مقاومة ومواجهة امرأتين للنبي محمد ﷺ. وما ذكر الله في الآية إلاّ أقوياء الملائكة الذين لهم الشدة والقوة والتي سترد قصتهما لاحقا.

ويقول ومِنْ بعض أسرار وجود العالم، الدور الخلاق للأنوثة في ظهور الكائنات، إذْ لم تتكوَّن الموجودات في العالَم إلاّ بفضل قبول الممكنات الأنثوية لآثار الأسماء الإلهية.

وبما أنّ المرأة تُجَسِّد على المستوى البشري القابلية والانفعال لذلك نجدها تتمتّع بقوة خاصة تستقيها ممّا تتحمله من قدرة على الخلق والجود. وقد نبّه الكلام الإلهي في القرآن الكريم إلى قوة المرأة حينما أعلن أنّ مواجهة امرأتين (عائشة وحفصة اللتين تعاونتا على النبيّ ﷺ) اقتضى تعاون الله والنبي ﷺ والملائكة وصالح المؤمنين،

وذكر الله الأقوياء والأشدّاء من الكائنات كلـها للاستعانة علـى امرأتين. وبذلك يتضمن الخطاب الإلهي اعترافاً بأنّ المرأة ليست محل ضعف واستكانة، بل هي محل قوّة خالصة غير مُعْلَن عنها لِما تحملـه من أسرار الغيب.

يعتقد ابن عربـي أنّ المرأة تَتَمتَّع بقوة فذّة نظراً لحملها لروائح التكوين (كما جاء في كتابه فصوص الحكم الجزء الأول ص 220). ولأنها أصْلٌ لحفظ الحياة البشرية والرّوحية ولِكَون حضورها يفتـق الاختلاف والمعرفة بالذّات وبالآخَر. فالمرأة من منظور ابن عربـي، تُوقظ في الرجل الانجذاب إليها، وتثير فيه الرغبة والحب فيعرف باطن الرجل في حينه مدى افتقاره إليها وهو يخال نفسه القوي الشـديد، ويدفعه عشقها للانحناء أمامها وفي كل ذلك تكمن قوتها الـتي لا تُقَارع.

ويحدثنا القرآن الكريم أيضاً في موقع آخر أنّ النبـي ﷺ كـان (لعلمه بسرّ قوة المرأة) يبتغي مرضاة أزواجه، وقد عاتبه الله تعالى علـى ذلك لَمَا أفرط منه من تحريم ما أحلّ الله له بقولـه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [التحريم: 1]. وقد جاء في سبب نـزول هذه الآية عند أكثر المفسِّرين[8] أنّ النبيّ ﷺ كان في بيت السيدة حفصة عندما كانت هي غائبة في زيارة لأبيها، فلمّـا رجعـت أبصرتْ السيدة مارية القبطية في بيتها مع النبـي ﷺ فلم تدخل حتّـى خرجت مارية ثمّ دخلت بعد ذلك. فلمّا رأى النبيّ ﷺ في وجه حفصـة الغيرة والكآبة قال لها: لا تخبري عائشة ولك عليّ أنْ لا أُقرِّبهـا أبـداً، لكنّها أخبرت عائشة وكانتا صديقتين. فغضـبت عائشـة ولم تـزل بالنبـي ﷺ حتى حلف أنْ لا يقرِّب مارية، فأنـزل الله تعـالى هـذه

السورة. وقيل أنّ سبب النـــزول أنّه كان ﷺ يشرب عسلاً عند زوجه زينب بنت جحش، فتواطأت عائشة وحفصة أنْ يقولا له مـــن بـــاب الغيرة إذا دخل عليهما: إنّا نجد مِنك ريح معافير (أي أننا نشـــم فيـــك رائحة شيء مُعَفّر بالتراب، وخاصة الشيء المعفّر بتراب الغـــنم لكثـــرة تعَفُّر الغنم بالتراب). ويقول المفسِّرون أنّه يمكن الجمع بـــين القصـــتين: قصة مارية وقصة زينب بنت جحش والعسل(8).

يُبْرِز ابن عربـــي دعامة شرعية أخرى لإثبات قوة المرأة وذلك بتخصيص إرثها في نصف ما يرثـــه الرجـــل ﴿... لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ...﴾ [النساء: 11] حيث أشار الله لقوة المـــرأة وضـــعف الرجل من خلال الميراث، فأعطى الأكثر للأضعف، لأنّ ابن عربـــي يرى في هذا التفسير غير المتكافئ للإرث بين المرأة والرجل حجّة على قوة المرأة ويفسر منح الله للرجل ضِعْف ما يعطيه للمرأة علـــى أنّـــه تعويض له عن ضَعْفِه المزدوج إذ أنّ الرجل ضعيف أولاً بفعل رجولته التي تخرجه عن أصله الأنثوي، وثانياً لعجزه عن الإنجاب بعكس المرأة التي تحبل بقوة لأنّها تحمل التكوين البشري في داخلـــها كخاصـــية جوهرية تجعلها تنطوي على سر الوجود.

وقوة المرأة حسب مفهوم ابن عربـــي تنبُع مِنْ كونهـــا محـــل الانفعال والإمكان وذلك من حيث أنّها تُمَثِّل التجلي للأنوثة الكلية، أمّا بوصفها إنساناً وشقيقة للرجل فإنّ التَمَايُز يُلْغَى، ومِـــنْ ضِـــمْنه حصولها على نصف حظ الرجل في الميراث اعتماداً علـــى وحـــدة الإنسان المخلوق مِن نفس واحدة.

وفي نفس السياق يأتي تفسير ابن عربـــي لشهادة امرأتين مقابل شهادة رجل واحد مُعْتبراً تعليل الحق لـــذلك بالنســـيان في قولـــه:

﴿... أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ...﴾ [البقرة: 282].
وبما أنّ التذكر لا يكون إلاّ عن نسيان، فقد اخبر الله تعالى عن آدم أنّه نسي: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: 115]. وقال الرسول ﷺ: "فنسيَ آدم فنسيت ذريته" رواه الترمذي، على أنّ الحقّ تعالى مَا وَصَف إحدى المرأتين إلاّ بالحيرة فيما شهدت فيه ﴿... أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا ...﴾ وتَضِل هنا بمعنى الحيرة. مِما وصفها الله بالنسيان، والحيرة نصف النسيان لا كُله ونَسَبَ النسيان الكامل للرجل أو ابن آدم حين قال ﴿... فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: 115]، فَيُمْكِن للرجل أنْ ينسى الشهادة ولا يتذكّرها ولكن لا يمكن أن تنسى إحدى المرأتين الشهادة فتُذكّر التي ضلّت عمّا شهدت فيه. وهذا يدل أنّ خبر الله صدق في هذه الآية لأنّه قال أنّ إحداهما تُذَكّر الأخرى بمعنى أنّها لا تضل وتنسى لذلك تُذَكّر الأخرى. وبناء على هذا الكلام الإلهي يكشف ابن عربي أنّ الرجل مجبول على النسيان، أمّا المرأة فقد تَضِل أو تحتار ولكنّها لا تنسى الشهادة كُلها. وإذا احتارت امرأة فإنّ الأخرى تحفظ الشهادة كاملة التي لا يُكَدِّرُهَا أي نسيان ممّا يعني عند ابن عربي أنّ شهادة امرأتين مقابل شهادة الرجل الواحد فيها إشارة رمزية إلى تجسيد المرأة لصفة مِنْ صفات الألوهية على الأرض وهي التذكّر وحفظ الذاكرة كما قال موسى: ﴿... لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: 52].

وتعميماً للفائدة ننقل مقالة رائعة تصب في اتجاه النسيان عند المرأة ولكنه هذه المرة تتحدث المقالة عن نسيان الإساءة عند المرأة والتي كتبتها الدكتورة سلمى محمود استشاري الطب النفسي بعنوان "المرأة لا تنسى الإساءة" وهي المقالة التي تحتوي على معلومات هامة

ودلالات ومضامين علمية واجتماعية ونفسية تخص علاقة الرجل كفاعل مع المرأة كمفعول به.

وأهمهما أن هرمونات الذكورة تعطل قدرة الرجل على تذكر التفاصيل السلبية. يشكو الكثير من الرجال من مشكلة تذكر زوجاتهم لأدق التفاصيل السوداء السلبية منذ بدأ علاقاتهم الزوجية، ومن ثم يتهم الرجال النساء بأنهن مخلوقات تحب الكابة والنكد ولهن قلوب سوداء ويزداد الأمر تعقيداً عندما يرتبط بذكريات سلبية تتعلق بعلاقة الزوجة بأهل الزوج خاصة، وبأقاربه وأصدقائه المقربين عامة.

تقول الدكتورة سلمى أن الأمر لا يتعلق بالقلوب السوداء أو البيضاء، فبعض الأشخاص يستطيعون رد الاساءة بمثلها ويأخذون حقهم بأيديهم قولاً أو فعلاً، وبعضهم يختزنها في أعماقه حتى تحين الفرصة لكي يرد الإساءة بمثلها وربما بأكبر منها. والبعض الاخر قد يتغاضى عن الاساءة ويتناساها متعمداً وواثقاً من أن "التطنيش" نعمة من الله عز وجل. أما النوع الذي تجرحه الإساءة وتؤلم مشاعره لكنه لا يرد وقتها ولا بعدها، كما أنه لا يستطيع تجاهل آثارها المطبوعة في قلبه إلى الأبد، ومع ذلك فهو لا ينسى. فهو شخص لا يستطيع أن يجرد نفسه من مشاعر الأسى والألم والغضب، ويعجز عن بذل مشاعر الود لمن أساء اليه. هذه الحالة لا تعبر عن قلب أسود بل تعتقد الكاتبة أن صاحبها على حق ومن الخطأ أن نلون قلبه بالسواد رغما عنه فالشعور بالظلم يولد الشعور بالقهر. والقهر قد يدفع الإنسان الى القيام بأي عمل غير محمود.

وعليه المرأة لا تفعل ذلك حباً في الكآبة والنكد كما يعتقد الرجال، إنما يتعلق الأمر في الأساس بدورة الهرمونات التي تؤثر على

الحالة النفسية لكل من الرجل والمرأة وتتحكم في ردود أفعال كـــل منهما عند وقوع المشكلة أو بدأ المشاجرة.

فهرمونات الذكورة لدى الرجال تعطل قدرهم علـــى تـــذكر تفاصيل المشاجرة وتخزينها في الذاكرة فنجد أهم قـــد نســـوا تماماً تفاصيل ما حدث بعد فترة، بينما على العكس تماماً ولحكمـــة لا يعلمها إلا الله، فإن هرمونات الأنوثة تساعد المرأة على تخزين كـــل تلك التفاصيل في ذاكرها فتسترجع كل الأحداث إذا تعرضت لنفس الموقف من جديد.

تقول الكاتبة إن هذا يطرح تساؤلاً هاماً يقول إذا كان الأمـــر غير إرادي لدى المرأة حيث أن الهرمونات هي التي تحفـــز الـــذاكرة وتنشطها في المواقف الضاغطة التي تتعرض لها، فما هو الحل ليتجنب الرجل تأثير تلك الذاكرة الفولاذية على علاقتهما المستقبلية؟ وتجيب الكاتبة قائلة: بأن الأمر في غاية البساطة ولكن رغم بســـاطته إلا أن بعض الرجال يجدون مشكلة كبرى في تنفيذه اعتقاداً منهم أن ذلـــك ينتقص من رجولتهم.

فالرجل الشرقي لا يهتم بدراسة نفســـية المـــرأة واحتياجاهـــا والأسلوب الأمثل للتعامل معها كما لا يدرك أنه يصعب على المـــرأة التعبير عن مشاعرها الغاضبة أو المحبطة تجاهـــه بصـــورة صـــحيحة، وتتحرج من مطالبته بالاهتمام بها والتعبير عن حبه لها رغم احتياجها الدائم إلى كل ذلك بالفطرة.

فرغم عجز المرأة عن نسيان إساءة الرجل لها، إلا أنها لا تنســـى أيضا لحظاها السعيدة معه وتتمتع بقدرة هائلة على المسامحة والغفران ويكفي أن يبادلها الرجل بكلمة (أحبك) وسط مشـــاجرة حاميـــة

ليفقدها قدرتها على استكمال الشجار وربما الاعتذار أيضاً حتى وأن لم تكن هي المخطئة وهنا يكمن سر الحل المبسط.

ففي تلك اللحظة تستبدل ذكرياتها السيئة عنه وعن الموقف بأخرى سعيدة لن يمكنها نسيانها أبداً. والأمر نفسه ينطبق على علاقة الرجل من أهله وأقاربه وأصدقائه بعلاقاتهم الايجابية والسلبية مع الزوجة.

تقول الكاتبة على الزوج أيضاً أن يتحلى بشجاعة الاعتذار عند إدراكه لخطأه ولا يترك الأمور معلقة، وأن يتعلم أن الاعتذار ليس دليل ضعف كما يعتقد البعض بل هو دليل على الثقة بالنفس والقدرة على تحمل المسؤولية، ويجب أن يكون اعتذاره لها قبل أن تذهب إلى الفراش لأن ترك الأمر للغد قد يزيد الأمر تعقيداً ويثبّت تفاصيل المشكلة في ذاكرتها أكثر بحيث يصعب الاعتذار في هذه الحالة، ولكن إذا اضطرته الظروف إلى تأجيل الاعتذار فعلى الاعتذار أن يكون مصحوباً بشي محبب إلى نفسها كتقديم باقة ورد أو دعوتها لعشاء رومانسي أو غيرها من الأمور التي تسعدها وتشعرها باهتمامه وحبه. ولا يؤتي الاعتذار ثماره إلا إذا تم بنفس راضية ووجه بشوش كفيل أن يذيب جبال الثلج بينهما، بينما كلمة "آسف" المقتضبة تبدو كتأدية واجب ولا تحقق أي تقدم مطلوب.

يُرَوَّج كثير من الناس لحديث نبوي يقول: "النساء ناقصات عقل ودين" والذي لا يوجد أي نَصْ قرآني يؤكده. يفسر ابن عربي هذا النقص فيرى أنّ العقل الذي نقص فيها هو عقل هذه الأحدية الذاتية، فوجبت صلاة الجمعة مثلاً على الرجل، ولم تجب على المرأة وهو الجمع بين العِلْم بتلك الأحدية وبين العِلْم بكونه تعالى إلهاً.

فك لغز هذا الكلام يتطلب أيضاً الأخذ بالمعنى اللغوي والمباشر لكلمة (عقل). فأصل الكلمة لغويا يتعلّق بعَقْل أو رَبْط قوائم الدابّة مما يكشف دلالة القيد والرباط. وبما أنّ المرأة لا تحبس الأنوثة فيها ولكي تحقق الوعي بذاتها فلا تحتاج في هذه الحالة إلى كبح أنوثتها ومِنْ ثم تنقص الذكورة في المرأة ومعها ينقص كبحها (أو عقلها) للأنوثة.

هذا النقص في نظر ابن عربي لا يقدح في كمال المرأة لأنّ آدم الذي يعتبر أكمل صورة ظهرت في العالم، ومَع ذلك تمثّل نقصه في أنّه لا يُنْجِب كالمرأة. فنَقْصُ الذكورة في المرأة يقابله نقص الإنجاب عند الرجل وكِلا النقصين لا يقدح في كمال إنسانيتهما ولا يُنْتِج تفاضلاً بين البشر.

ويقول ابن عربي إنّ هذا السر الباطني لقوة المرأة يدعمه واقع ظاهر، فمثلاً تقوم المرأة في بعض المواقف مقام رجلين وهو قبول الحاكم شرعياً لقولها في حيض العدة، وقبول الزوج قولها في أنّ هذا الولد ولده، وقبول قولها أنّها حائض. المثير في هذه الأحوال حيث يستند الشرع إلى شهادة امرأة واحدة، أنّها تخُصّ أصل الإنسان وجوهره مِنْ حيث (صُلب المولود والحيض والعدة) باعتبار الحقيقة التي تقول أنّ الأنوثة قوة خالصة لأنّها تُعبِّر عن تَجَلٍّ للحقيقة الباطنية للإنسان التي تتجلى بدورها عبر الحب الذي يرفع صاحبه إلى مقام القرب الإلهي.

بمناسبة الحديث عن "العدة" أعلن عالِم الأجنة اليهودي روبرت غيلهم[21] في معهد اينشتين المختص بعلم الأجنة، أعلن إسلامه بعدما أذهلته الآيات القرآنية التي تحدثت عن عدة المرأة المطلقة بثلاث أشهر

والتي تقول في سورة الطلاق(1) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ ...﴾ [الطلاق: 1] وفي الآية (4) أحصى الله هذه العدة وحددها بثلاث أشهر قائلا: ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ...﴾ [الطلاق: 4]. وهذا العالم أفنى عمره في أبحاث تخص البصمة الزوجية للرجل، تأكد له بعدها أن هذه البصمة تزول بعد ثلاثة أشهر حيث أفاد أن اقتناعه بالإسلام كان بسبب الآية (4) من سورة الطلاق وبسبب ما أثبته علمياً بأن جماع الزوجين ينتج عنه ترك الرجل لبصمته الخاصة لدى المرأة، وأن كل شهر من عدم الجماع يسمح بزوال نسبة معينة من البصمة تتراوح ما بين 25–30%. وبعد ثلاث أشهر تزول بصمة الرجل كلياً، مما يعني أن المرأة المطلقة تصبح قابلة لتلقي بصمة رجل آخر. وكانت هذه الحقيقة مذهلة لهذا العالم حينما قام بإجراء التحاليل على زوجته نفسها فاكتشف أنها تملك ثلاثة بصمات رجالية مما يعني أنها كانت تمارس العملية الجنسية خارج إطار الزواج الشرعي أو بمعنى آخر أنها كانت تخونه مع ثلاثة آخرين وأن وحداً فقط من أبنائه الثلاثة هو ابنه الشرعي، وعلى إثرها تأكد تماماً بأن الإسلام هو الدين الوحيد الذي يضمن حصانة المرأة وتماسك المجتمع لذلك اعتنقه دون تردد.

الفصل الخامس

الإنسان الكامل خليفة الرب

لعَلّ ابن عربي كما تقول الباحثة نزهة براضة، أوّل مَنْ استعمل عبارة الإنسان الكامل. أمّا الإنسان الناقص عنده فهو الإنسان الحيوان الذي يتصرّف حسب ما فيه مِنْ حيوانية ويُكَوِّن بذلك صورة عن العالم الظَاهر ولا يتجلّى فيه إلاّ جزء مِنْ معَاني الأسماء الإلهية، بعكس الإنسان الكامل الذي يجمع بين حقائق العالم وحقائق الحق.

ويتساوى في ذلك الرجال والنساء ليظهر الكائن البشري كوحدة تتركّب مِن الغيب والشهادة، ومِن المطلق والنسبي، ومِن الفاعلية والانفعال حتّى يدرك ما خصّه به الله مِنْ علم بأسمائه الحسنى حتّى يُحقق الكمال المنشود فيصير العين التي ينظر الحقّ بها إلى خلقه فيرحمهم.

وبقبول هذا الإنسان الكامل لنظر الحقّ وأثره، يصير مؤتَمناً على هوية الحقّ وموضِعاً لسرِّه. والهوية الإلهية تعني عند ابن عربي الحقيقة الغيبية وروح الصورة التي تسري في مظاهر الوجود لتمنحها مِن المعاني التي تكتسبها حضوراً في الكون يجمع بين العيني والغيبي. هذا التداخل بين اللاهوت (ما هو إلهي؟) وبين الناسوت (ما هو إنساني؟) يترجمه حديث قدسي يقول: **"وما يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتّى أحبه، فإذ أحببته، كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها"** رواه البخاري.

ويبيّن ابن عربـي بناءً على هذا الحديث أنّ قُـوى الإنسـان وجوارحه ليست شيئاً مختلفاً عن هوية الحق التي هي عين الجـوارح التي هي عين العبد، فالهوية واحدة والجوارح مختلفة.

ويقول ابن عربـي إنّ كل إنسان بشكل عام، يحمِـل في باطنـه أمانة إلهية وهي هوية الله، لكن أغلب البشر يغفلون عن حقيقة نفوسهم ويجهلون السّر المُودع فيهم. والطريف ولحكمة يعلمها الله، فـإن هـذا يذكرني بأنّ السودانيون هُم الوحيدون في هذا العالَم الـذين يُسـمُّون أبناءهم باسم (السِّر) و(سرّ الختم) وبناقم باسم السُّرة (بضم السـين). فهل في هذا دلالة أنهم يعرفون السر المودع فيهم... الله أعلم.

ويستطرد ابن عربـي قائلاً بأنّ مَنْ يجهل الإنسـان الكامـل، يجهل الحق، فما عرف الحقّ إلاّ الإنسان الكامل. فالله حجب الجميع عنه وما ظهر إلاّ للإنسان الكامل الذي هو ظلّه الممـدود وعرشـه المحدود وبيته المقصود الموصوف بكمال الوجود.

يقول ابن عربـي أنّ هذه الشمولية الكامنة في الإنسان الكامل يترجمها الكلام الإلهي بقوله: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ... ﴾ [البقرة: 31]. لكي يُحيط آدم أو الإنسان الكامـل بالحقائق كلها المتضمنة في الأسماء الإلهية المتقابلة، وبفضـلها يملـك صفات الأنوثة المناسبة لأسماء الجمال مِنْ جهـة، ويملـك صـفات الذكورة المناسبة لأسماء الجلال مِن جهة أخرى، ويتحقق بذلك مِـنْ هذه التركيبة الكمال المنشود.

ولّما كانت النساء محل التكوين وكان الإنسان يقتضي أنْ يَكُون فَعّالاً فلا بد له من محل يفعل فيه إنجابه فلا يكون ذلك إلاّ في النساء، لذلك تتمتع المرأة والإنسان الكامل بصفة التركيب مِمّـا يجعلـهما

يشتركان في الكمال لاشتراكهما حسب رؤية ابن عربي في الانفعال، والأنوثة هي التي هيأت الإنسان لدور خلافة الله في الأرض.

يُفَرِّق ابن عربي بين الإنسان الخليفة والإنسان الحيوان. فالذي يقف عند حدود حيوانيته حينما يغفل عن حفظ صفات الإنسانية المستودعة في كيانه ويعجَز عن صقل الصورة الرّحمانية فيه نتيجة جهله لها ولعدم تَمَكُّنه مِن رؤيتها في نفسه وفي الغير وفي الكون، هو غير الإنسان الخليفة الذي يتميّز بعلمِه بذاته الجامعة بين أسماء الجمال والجلال، وبذلك يكون هو نفسه الإنسان الكامل، لذلك يمنح الله هذا الإنسان صفات يطلقها على نفسه كالعالِم والمُدَبِّر والودود وغيرها، لذلك سمّاه (خليفة) من أجل هذا، لأنه تعالى الحافظ به خلقه كما يحفظ القفل الخزائن فاستخلفه في حفظ المُلك، فلا يزال العالَم محفوظاً ما دام فيه هذا الإنسان الكامل.

تُنَاط بالخليفة مُهِمّة حفظ ما أبدعه الله مادياً ومعنوياً. ويتطرّق ابن عربي إلى العلاقة بين حفظ الوجود والمرأة والانحناء خلال تعرضّه لتكليم الله لنبيّه موسى الذي خرج في طلب النار لأهله لِمَا كان فيه منَ الحنو عليهم الذي أورثه الانحناء على مَن خُلق من الانحناء، وهي أهله (أي زَوْجُه) لأنّها خُلِقَت بالأصالة مِن الضِلع والضِلع له انحناء، لأنّ الانحناء يجمع ما تحتويه من وجود بخلاف مَا لو كان الضلع على غير استدارة لكانت فيه زوايا فارغة بعيدة عن الحفظ الذي خُلِقَ له، فوصف الله نفسه بأنّه: ﴿... عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ: 21] و﴿... بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ [فصلت: 54]. فيشكّل الحفظ الجزئي للأجسام امتداداً للحفظ الكلي للوجود.

ومِن الانحناء صدرت المرأة. لذلك يقوى فيها الحنو على أبنائها. ويَرُدّ ابن عربـــي على أولئك الذين يقولون باعوجاجها لأنّها خلقت من ضلع آدم بأنّ في اعوجاجها قمّة استقامتها.

يُستَخلَص مِن هذه النظرة في نظر ابن عربـــي أنّ الحفظ الإلهي للعالَم يتم على مستويين: الأول حفظ طبيعي، تصونه المرأة بفضـــل انحناء رحمها وقدرتها على الولادة، والثاني حفظ روحـــي، تضـــمنه الأنثى بإشاعة الحب والحنو والعطف.. وتتجلّـــى هـــذه الصـــفات في الإنسان الخليفة لذلك جاء اسم الخليفة مؤنثاً. بل قـــال تعـــالى: ﴿... إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً...﴾ [البقرة: 30] ولم يقل نائباً أو إنساناً أو داعياً. ويرى ابن عربـــي في تأنيث اسم "الخليفة" إشـــارة واضحة إلى ما تحمله التسمية من دلالات للخلـــق والإبـــداع إذ أنّ الغاية مِن وجود الإنسان "الخليفة" تتلخّص في التكوين كأشرف فعل ليكون حفظاً للكون، ولا يتم ذلك إلاّ بفضل انفعال تَصْـــدُر عنـــه الموجودات سواء كانت روحية أو حسيّة، فهذا التكوين يَحْتَل موقع الأنوثة وبه يحفظ الله الوجود.

يقول ابن عربـــي إنّ حفظ الإنسان يتطلب إذاً استمرار تكوين طبيعي وروحي، ويتحقق التكوين الروحي بارتقاء الإنسان لدرجات المعرفة وابتعاده عمّا يمنعه مِن القرب الإلهي: (كصفات التَجبُّر والقهر والشدة والجبروت والكبرياء) وكلها صفات ذكورية يمكن أن تموت بمجاهدة النفس، ليُولد الإنسان في صورة محل يقبل المـــودة والرحمـــة والرأفة وهذه صفات أنثوية.

ويُذَكِّرنا ابن عربـــي بأنّ حفظ المرأة للوجود المـــادي بفضـــل الولادة هو استمرار للكلمة الإلهية والذِكر الإلهي، أمّا دم النفاس فإنّ

الله أمسكه في الرحم ثم أرسله فيما بعد لكي يزلق به خروج الجنين رفقاً بأمه.

بَقِيَ أنْ نقول إنّ فكرة صدور المرأة من ضلع آدم لا وجود لها في القرآن الذي يؤكّد أنّ المرأة والرجل من نفس واحدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ...﴾ [النساء: 1]. ويصُبّ استعمال ابن عربي لعبارة "صدور المرأة عن الضلع" في تصوره باعتبارها ترمز إلى الميل والانحناء اللذين يرتسمان في الضلع والدالّين على الاستدارة والمتجسِّدتَين في استدارة الرحم.

الفصل السادس

هل المرأة عورة أم مفخرة؟

استهلّ ابن عربـــي مداخلته في هذا الموضوع بأبيـــات الشـــعر التالية:

لَيْسَـــت صَـــفِيّةُ خِرْقَـــةَ الْفُقَـــرَاءِ
لَمَّـــا تَحَلَّـــتْ حِلْيَـــةَ الأُمَنَـــاءِ
وأَتَـــتْ بِكُـــلِّ فَضِـــيلَةٍ وتَنَزَّهَـــتْ
عَنْ ضِـــدِّهَا فَعَلَـــتْ عَلَـــى الْنُّظَـــرَاءِ
وَتَكَامَلَـــتْ أَخْلاَقُهَـــا وَتَقَدّسَـــتْ
وَتَخَلَّقَـــتْ بِجَوَامِـــعِ الأَسْـــمَاءِ
جَاءَتْ لَهَـــا الأَرْوَاحُ فِـــي مِحْرَابِهَـــا
فَهِـــيَ الْبَتُـــولُ أُخَيَّـــةُ العَـــذْرَاءِ

تقول الباحثة نـــزهة براضة[4] أنّه يُشَاع عنِ التصـــوّف ذمّـــه للجسد بدعوى أنّ الاهتمام به يبعِد الإنسان عن المنابع الرّوحية، لكن ابن عربـــي يرى أنّ الجسد محل الإلقاء الإلهي وموضع مشاهدة الحقّ لِمَا يتمتّع به الجسد من قبول وانفعال ذاتِيَّين.

ويحظى الجسد بالقبول لأنّه امتداد للطبيعة يستقي قُوّتـــه مِـــن غذائها فيكتسب الحياة الطبيعيّة، كَما أنّه يتلقّى نفْخ الرُّوح الإلهـــي ويحتل بذلك موقع البرزخ الذي يفصل بين الحسِّي والكلي. ونظـــراً

لطبيعة الجسد الانفعالية ولكونه محل التَّلَقِّي فإنّ الأنوثة تغلب عليه فيقوم الجسد وتتقوّى الحياة فيه بعطائين الأول الأنثوي الذي تمنحه الطبيعة عن طريق الأغذية والثاني ذكوري يأتي مِن جهة تأثير الروح.

الذين فسَّروا الخطاب الإلهي مِنْ منظور السلطة الذُّكورية، نظروا إلى جسد المرأة على أنّه عورة يجب تغطيته لكي لا يفتِن الرِّجال، لذا فُرِضَ النِّقَاب والخِمَار والحِجَاب على النساء خوفاً على الرجال مِنْ فتنة.

وتم استغلال الشرع لتبرير حجاب المرأة ومعه ضعف النازع الأخلاقي لدى الرجال، وباسم الدين التزمت النساء بالحجاب. وتقول الباحثة نزهة براضة لا يُشكِّل حجاب النساء أصلاً مِنْ أصول الدين بل أملته شروط بشرية متغيّرة وذلك نقلاً مِنْ موقف ابن عربي الذي يقول: لو كان الستر لها أصلاً لما قيل لها في الإحرام لا تستري وجهك، ألا ترى أنّ آية الحجاب ما نزلت ابتداءاً إنما نزلت باستدعاء بعض المخلوقين. وكثير مِنْ أحكام الشرع نزلت لأسباب كونية ولولاها ما أنزل الله فيها ما أنزل، ولذلك يفرِّق أهل الله بين الحُكْم الإلهي ابتداءً والحُكْم الإلهي الذي كان مطلوباً لبعض عباد الله فيكون ذلك الطلب سبباً لنزول ذلك الحُكْم. لذا تم التمييز ضمن النص القرآني بين آيات مُحْكَمَات (تخصُّ الجانب العقائدي) وآيات متشابهات (يتعلق نزولها بأسباب وظواهر بشرية بعضها تلاشى (كدية القتل والعبودية ولم تعد أحكامها قطعية). وفي سياق ظواهر اندثرت ورد قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ ...﴾ [الأحزاب: 59]. وقد نزلت هذه الآية بفعل شروط تاريخية

اجتمعت عبرها الحروب والعبودية مِمَّا تطلَّب التمييز بين المسلمات وغير المسلمات وبين الحرائر والإماء وكانت الغاية مِنْ ذلك اختباء الحرائر مِنْ المسلمات خلف الحجاب كي لا يُعْرَفْن دَفعاً للأذى. ولأنّ الحجاب جاء لإحداث الفرق بين الحرائر والإماء مِن النساء، تباينت أحكام الفقهاء فقضى بعضهم بحجاب المرأة الحرة وسفور المرأة غير الحرة مِنْ منطلق أن جسد المرأة الحرة عورة ولكن جسد المرأة غير الحرة ليس بعورة.

الجدير بالذّكر أنّه ورد في موسوعة الفقه المالكي[15] بخصوص اللباس للصلاة أنّ أقل ما يجزئ المرأة الحرة ما يواريها كلّها إلاّ وجهها وكفيها وإحرامها في ذلك في حجها وعمرتها، وما سوى ذلك فهو عورة، وعورة الأَمَة كعورة الرجل، إلاّ أنّه يُكْرَه النظر إلى ما تحت ثيابها لغير سيدها، وتأمُّل ثديها وصدرها وما يدعو إلى الفتنة مِنها، ويستحب لها كشف رأسها ويكره لها كشف جسدها، وكل مَنْ كان فيها شعبة مِن الرِّق (أي خاصية) فهي أَمَة.

كذلك فإنّ اللباس الذي يحجب المرأة نُظِر إليه من منظورين: الأول طبيعي يُصَرّح باختلاف جنسها عمّا للرجل والثاني اجتماعي يعبِّر عن انتماء المرأة إلى فئة حرائر تسترقهنّ الوظائف الحيوانية فتصير الأَمَة في عُرْف الفقهاء أكثر تحرّراً مِن عبء جسدها مِن الحرّة. غير أنّ هذه النظرة المبنية على التمييز الجنسي بين المرأة والرجل، والتمييز الاجتماعي بين الحرّة وغير الحُرّة لا يتبناها سائر المسلمين إذ لا يُدْرِج ابن عربي في أحكامه الفرق بين امرأة حرّة وأخرى أَمَة لأنّه لا يفرِّق بين إنسان وآخر ولا يأخذ في الاعتبار الاختلاف الجنسي بين الرجل والمرأة لأنه اختلاف يحط مِنْ إنسانية الإنسان.

ويَعْتَبر ابن عربـــي أنّ الحديث عن حجاب النساء ينطوي على معانٍ باطنية ولا يقتصر على المعنى الشائع والظاهر للعيان، لذلك قال لو كان الستر للمرأة أصلاً مِنْ الأصول، لما قيل لهــا في الإحــرام لا تستري وجهك. دليلاً على أنّ الحجاب لا يخصّها كحكم قطعي.

ويرى ابن عربـــي أنّ فك رمزية هذا القول يتم بالوقوف عند معنى (الوجه) باعتباره أشرف ما في ظاهر الإنسان لكونه يمثل حضرة جميع القوى الباطنة والظّاهرة ولأنّه محل الإقبال على الله دون غــيره مِن الجهات وسمّاه ابن عربـــي بالجهة العظمى باعتباره الجهــة الـــتي ترتسم عليها حقيقة الذّات وتتجلّى فيه الحقيقة الظاهرية للإنســـان، وبظهورها تنكشِف الحقيقة الباطنَة الخفيّة ويطِلُّ المحجوب مِنْ خلاله.

فالوجه يعكس العلامات التي يُخَبِّئها الإنسان ويعتبرها عـــورة. يقول ابن عربـــي في (الفتوحات المكية الجزء الثاني) إنّ العورة تحمل لغوياً معنى الميل، لأنّها من أصل عَور، والعور في العين حَوَل وهو ميل اللّحْظ كما جاء في لِسان العرب. والعَورَة عند ابن عربـــــي هـــي المائلَة إلى الحقِّ عن نفسه.

أمّا الوجه مِنْ حيث علاماته التي تعتـــبر عـــورة فإنّـــه يحمـــل الانتصاب ببروز الأنف، (يُطْلَق على الأنف اسم عضو الذّكر بلغـــة أهل اليمن كما جاء في لسان العرب). ويحمل انفراجاً ثلاثيـــاً مِـــن خلال شقوق الفم والعينين. وبما أنّ الوجه عبارة عن مرآة تعكـــس السر الخفي، فعبره تتجلّى صورة الجمال.

وعندما تستر المرأة كل جسدها وتعرِّي وجهها فكأنها تجعـــل أسرارها ظاهرة سافرة وحينذاك تفتن الرجل، لأنّها تصير مجرَّد أنثـــى تنطلق بها وعبرها الشهوة وتصرخ أنوثتها الطبيعية لتقـــول إنّ كـــل

الرجال عبارة عن ذكورة منتصبة، فيعطل الإنسان وجه إنسانيته مقتصراً على تحريك الجانب الحيواني فيه.

ويرى ابن عربي أنّ هنالك علاقة بين الوجه والفرج تعبّر عن العلاقة الخفية بين الظّاهر(الوجه) والباطن (الفرج) عبر اشتراك الوجه والفرج في الرمزية الخاصة بإحداث إقبال وميل ينطقان برغبة تعبّر عن ذاهما، بحضور قطبية الأنوثة والذكورة. ويرى أنّ أصل هذا الميل يعُود إلى انفصال الأنوثة عن الذكورة في الإنسان الأول آدم، ممّا أدى إلى امتلاء محل الأنوثة في الرّجل بالميل إلى المرأة. وسمّى هذا ميل الإرادة وليس ميل الشّهوة لأنّه يتجاوز حدود الجنس الطبيعي ليدلّ على الرغبة الموجهة للانفتاح على الآخر.

وبناء على هذه الأسس النّظرية، يدحض ابن عربي الادعاءات التي تقول إنّ المرأة عورة ويقول إنّ العورة في المرأة كما في الرّجل هما السَّوءتين فقط بنصِّ القرآن: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا ... ﴾ [الأعراف: 20]، ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ... ﴾ [الأعراف: 22]. فالخطاب الإلهي لمْ يميِّز بين سوءة آدم وسوءة حوّاء وساوى بينهما لكي يفهم الإنسان أنّ جسد المرأة كجسد الرجل مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: 4]. دون تمييز بين رجل وامرأة، ولا فرق ولا دَنَسْ ولا نقص يمسّهمَا رغم ما يُنطَق به مِن العدَاء حيال النساء بدعوى دَنَس أجسادهنّ، وهي الرؤية التي تفتقد إلى أي أساس ديني برغم انتشارها في المجتمعات الإسلامية.

المهمُّ أنّ ابن عربي ينطلق مِنْ مبدأ التماثل والمساواة بين البشر ولا يفرِّق بين رجل وامرأة، أو بين أَمَة وحرّة لأنّ الكل مِلْك الله فلا

حريّة عن الله. فإذا خرج النّاس عن رِقّ الغير وطالبوا بحريّتهم فهـذا الخروج يكون خروجاً عن رق البشر منهم، لا عن رقِّ الحق تعالى.

والحريّة في المفهوم الصوفي تعني التحرُّر مِن استرقاق البشر بعضهم بعضاً لأنّ المالك الحقّ هو الله. ويمرُّ طريق الحريّة بالتخلُّص ممّا يُكَبِّل الإنسان ويمنعه مِنْ معانقة المطلق والوصول إلى الله. وفي هـذا يتساوى الرجل مع المرأة في القدرة على خوض تجربة هذه الحريّة.

وفي نفس السِّيَاق يرى ابن عربـي أن تغطية المرأة لرأسـها في الصلاة مِنْ منظور باطني، له دلالات عميقة لا يبلغها مَنْ وقَف عنـد ظاهر هذه التغطية للرأس. فيقول: بِمَا أنّ المرأة نفس والرأس بمثابـة الرئاسة، والنّفس عادة تحب الظهور في العالم برياستها لحجابها عـن رئاسة سيِّدها عليها، لهذا قيل آخر ما يخرج مِنْ قلـوب الصـديقين حب الرئاسة. ولهذا أُمرت النَّفس أنْ تغطي رأسها أي تستر رياستها، فلهذا أُمرت النَّفْس المَملوكة لله أن تغطي رأسها في الصَّلاة. واقتـرن الحجاب في ظاهر الكلام بالنِّساء لأنّ النفس تدل على الأنوثة في كل إنسان، ومِنْ ثمّ فإن القول الخاص بحجاب المـرأة يخاطـب نفـوس الرجال والنساء اللاتي يحببن الظّهور والغلبة والملـك وتسـتعبدهن الرئاسة والسلطة. فيحثهن الخطاب الإلهي على تغطية حُب الرياسة.

ويقول ابن عربـي إنّ تعلق النفوس بالسلطة والرياسة يظهـر حين تحتجب عن هذه النفوس حقيقتها مِمّا يجرّها نحـو السـعي إلى التغلّب على أقرانها، لذا يأمُرها الله أنْ تسـتر حُبّهـا للرياسـة وأنْ تتصرّف حسب طبيعتها. أمّا النفس التي لا تطلب الرياسة على غيرها ولا تركب الجبروت والطغيان فإنّها تحتجب بتواضـعها ورحمتـها. ويرى ابن عربـي أن الآية الخاصّة بحجاب النساء توجه في حقيقتها

إلى نفوس غالبية الرجال لتقاتلهم من أجل السلطة والظهور والقهر حيث يأمرهم الله بتغطية ما في نفوسهم من حب السلطة وطلب حجاب العبودية.

ويقول ابن عربي إنّ اللباس له بالإضافة لدلالته الحسيّة المباشرة، دلالات أخرى باطنية استشفّها من الخطاب الإلهي. فيذكر مثلاً الآية: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: 26]. والرِّيش هنا بمعنى الزينة. فينظر إلى اللباس من جهتين: الأولى جهة الظاهر لستر العورة والثانية جهة الباطن التي ترمي إلى التقوَى والتي تعني عند الصّوفية مكارم الأخلاق، بما تعنيه من صِدْق وأمانة ووفاء وتكريم للغير وغيرها وهي مكارم الأخلاق التي تسمو به نحو إنسانيته وتقربه من الله.

ثم تأتي الآية التي تقول:﴿... هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ ...﴾ [البقرة: 187] وتعني زمن النكاح تَلبُّسْ كل طرف بالآخر وأحاط به، كما يفعل اللباس عندما يحيط بصاحبه ويستره ليصير اللباس ظاهراً والملبوس باطناً. فحين تظهر الأنوثة في النساء فإنّها تستر ذكورهن الباطنية، وعندما تغلب الذكورة على الرجال فإنها تحجب أنوثتهم الباطنية، وهنا يتّخذ اللباس طابع الحجاب الرمزي فيستر الظاهر (أي اللباس) الباطن (أي الملبوس). وخلاصة الأمر عند ابن عربي أنّ اللباس كحجاب ينطوي على معاني الستر والتقوى (بمعنى مكارم الأخلاق) والعبودية لله.

ويفسر ابن عربي الفرق بين لباس الإحرام في الحجّ عند المرأة والرجل بِكَون الرجل يرتدي قماشاً غير مَخِيط لأنّه يرمز الى

البساطة، وبِكَون المرأة ترتدي لباساً مَخِيطاً لِمَا فيها من تركيب معقّد لأنّ تنوُّع اللباس هنا يتعدّى حدود البشَرِي والكَونِي ليتعلق بالأنطولوجي (الوجودي) كلباس الإحرام في الحج والذي يحدث في زمن يحرم فيه الوصل بينهما، فيسموان عن الإنساني لينتميا كما يقُول ابن عربي إلى مطلق يرمز إلى قطبيته بواسطة اللباس.

ومِن الرؤية المعادية للمرأة هنالك مَنْ يُصِرّ على جعل العلامات الأنثوية مرادفة للشهوة الحيوانية، مُبرِّراً دعواه بالدِّين رغم افتقاد هذه الدعوى لأي نص شرعي، فحُرِمت المرأة حتّى مِن التّصرُّف بصوتها الذي رآه البعض دنساً للطهارة وسبباً لانفعال الغرائز. فمُنعَت النساء مِن الآذان ومِن الخطَب الدينيّة والسياسِيّة. وعندمَا تسير النساء إلى المساجد عليهن التزام الصّمت بحجّة الخوف على طهارة الرجال. وحتّى في حالة سهو الإمام لا بد أنْ يلجأن إلى التصفيق بدعوى أنّ أصواتهنّ حرام.

ويُفنِّد ابن عربي هذه الادعاءات بالاستناد إلى الكلام الإلهي: ﴿... فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: 32]. ليؤكّد الشيخ الأكبر أنّ هذه الآية فيها إباحة كلام النساء للرجال على نحو خاص. ويقول إنّ العارف بالله إنْ كان صحيحاً قوياً فلا يبالي بما وقعت المناجاة فيستوي عنده الرجال والنساء. فالآية واضحة يأمر الله النساء بالتعبير والكلام ﴿... وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾[الأحزاب: 32]، وينهاهن عن التصرّف كمجرّد إناث يُظْهِرن الخضوع والانكسار. والعارف بالله يفهم ذلك لأنّه ينظر إلى الإنسان وليس إلى جنسه أو شهوته لأنّ ما يميِّز الإنسان عن الحيوان هو الكلام، ومِن خلاله يتوارَى الجِنس الحيواني.

وهذا هو الفرق بينَ الإنسان والعارف بالله الذي يـرى الحـق وآثاره أينَمَا تَوَجّه ﴿... فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ ...﴾ [البقرة: 115]. وبين الإنسان والحيوان الذي يلحقه الأذى لمجرّد حضـور المـرأة أو سماع صوتها فيرمي ضعفه بها ويحكم عليها بالصّـمت لأنّ في قلبـه مرض لقوله ﴿... فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٌ...﴾ [الأحـزاب: 32]، وَيكمُن هذا المرض في تفسير ابن عربـي في رؤية الرجـل لنفسـه كذكر وليس كإنسان، ومِنْ علامات المرض حيازة الرجل للسـيادة لمجرد كونه ذكراً ويجعل مِن نفسه نموذجاً مطلَقاً لكل وجود وأساساً للسيطرة والقهر.

وخلاصة القول كما تقول الباحثة نـزهة براضـة إنّ تفسـير سلطان العارفين ابن عربـي لأحكام الشريعة الخاصة بالمرأة ينطلـق من تصوُّر تذوب فيه الخصوصيات المُمَيِّزة لكل من المـرأة والرجـل ليندمجا في شيء واحد هو الإنسان، وتتساوى عنده خطوط الإنسان في الحياة البشرية بتشعُّباتها الخاصة والعامة، الفردية والجماعية.

فكل ما يحِقُّ للرجل يحقُّ للمرأة، وكل ما يُلزَم به الرجل تُلزم به المرأة. ويرى ابن عربـي أنّ وحدة هذا الإنسان لا يفكها الاختلاف إلاّ حينما يتدخَّل باطن الإنسان وعبر هذا التدخُّل تتجلّى رمزية قطبية الوجود المطلق السارية كأنوثـة وذكـورة في كـل الموجـودات والمخلوقات بما فيها الكائن البشري. والمرأة عنده في نهاية الأمر هـي مفخرة وليست بعورة.

الفصل السابع

هل حب النساء إرث نبوي؟

يقول ابن عربـــي في شعره:

إنّ الَّتِـــي كَـــانَ الوُجُـــودِ بِكَوْنِهَـــا
ذَاتـــاً يُقَـــدِّسُ لَفْظُهَـــا مَعْنَاهَـــا

إِنِّـــي لأَهْوَاهَـــا وَأَهْـــوَى قُرْبَهَـــا
مِنِّـــي وَأَهْـــوَى كُـــلَّ مَـــنْ يَهْوَاهَـــا

لَيْلَـــى وَلُبْنَـــى وَالرَّبَـــابُ وَزَيْنَـــبٌ
أَتْـــرَاب مِـــنْ حُبِّـــي لَهَـــا مَحْيَاهَـــا

لَوْ مِـــتُّ مَـــاتَ وُجُودُهَـــا بِمَمَاتِنَـــا
عَـــيْنٌ لَهَـــا وَسِـــوَاهَا

عَجَبـــاً لَنَـــا وَلَهَـــا فَـــإِنَّ وُجُودَنَـــا
فَوُجُودنَا فَرْدٌ فَلاَ ثَـــانٍ فَمَـــنْ ثَنَّاهَـــا

ويربط ربطاً مُحْكماً بين الحقيقة الآدمية التي تجسَّدت عبرها جسمية الإنسان، وبين الحقيقة المُحمّدية التي تجسَّد عبرها الحضور الجسمي لنبـي الإسلام الذي خُتِمَت به العقائد والحقائق كما خَتمت المرأة/حواء دورة إيجاد الإنسان.

ومن هنا جاءت العلاقة المحمدية بمحبّة النساء لتَلتَقي في نظر ابن عربـي بداية الكون الرُّوحية (الحقيقة المحمدية بخاتمته، وتجتمع الحكمة

والمحبّة لتكتمل الحقيقة الإنسانية)... لأنّ ابن عربي ينظر إلى الوجود عبر حركة دائرية تجعل بدايته تلتقي مع نهايته. وعندما قال رسول الله ﷺ: "حُبِّب إليّ مِن دنياكم النساء والطِيب وجُعلت قرّة عيني في الصَّلاة"، نجده قد بدأ بالنساء وختم بالصلاة، وكلتاهما تأنيث. وأدْرجَ بينهما مُذَكّر (الطِيب)، فالرجل إذاً مُدْرَج بين ذاتٍ ظهر عنها، وبين امرأة ظهرت عنه فهو بين مؤنثين، هما تأنيث ذاتي وتأنيث حقيقي.

وهذا الطّرح يعكس انتساب كل رجل إلى رحم أمّه لأنّه مِن هذا الرحم يولد فيكون صدوره عن تأنيث ذاتي. وبشوقه إلى المرأة ووصاله معَها يحتَلّ الرجل موقعاً بينَ مؤنَثين، مؤنّث أصلي ظهر عنه (وهو الأم) ومؤنَّث فرعي يحِنّ إليه (وهو المرأة)، وبذلك يعيد دورة الإيجاد أو الوجود البشري في فلسفة ابن عربي.

يتّضح مِن الحديث النبوي السابق الذكر: "حُبّب إليّ من دنياكم النساء... الخ" أنّ محبّة النّبي ﷺ للنساء ليست مِن تلقاء نفسه أو مقصودة لذاتها بدافع الشّهوة الجنسية، بل هي من لدن الله الذي حَبَّب إليه النساء. فلهذا قال: "حُبِّبَ إليّ" ولم يقُل "أحْبَبتُ" ليتعلّق حبّه بربه، لأنّه أحبّها بحبّ الله إياها تخلقاً إلهياً.

الحب في التفكير الصُّوفي كما ذكرنا سابقاً، هو طريق للمعرفة والقرب الإلهي بل ينظر اليه كأصل للوجود وكأساس لحفظ هذا الوجود. لذلك فأن الحب الإلهي عند ابن عربي يتوجّه نحوَ الإنسان الذي خلقه الرحمن على صورته، وبهذا الحب تنفتح العلاقة وتحفظ الصِّلة بين الحق والإنسان وتسري المحبّة الإلهية بين البشر.

ويقول ابن عربي: حينما يحبُّ الرجل المرأة بالحب الذي وهبه له الحق، يصير حب المرأة في هذا المقام تَخلُّقاً إلهياً وإرثاً نبوياً. والقول

بأنّ الحب إرث نبوي يقتضي عند ابن عربـــي تحديد ما هو المقصود بالإرث النّبوي؟ لأنّ للوراثة مستويين: الأول وراثة العلماء للأنبيـــاء لأنّهم قبلوُا وعَلِمُوا جيّداً ما قاله الرسول ﷺ فأصبحوا مِن ورثته. أمّا الثاني فهو ورِثَة الشيء عن حب. أمّا أنْ تحبّ ذلك، ولكن مِنْ غــير تحبُّب فليس بوارث.

ويريد ابن عربـــي أنْ يقُول إنّ استمرار الإرث المحمدي يتحقّق باقتفاء أثر كل مِنَ العِلْم والحب، وذلك لِمَا يختزنه كلاهما مِن أسرار، جعلت الكون يُحفظْ بفضلهما، بمعنى أنّه بالحب تتفق المعرفة بالذّات متَى ما انفعل الإنسان للحب اللدني (الإلهي)، وبالعلم مِــنْ الناحيــة الأخرى ينكشف المحجوب لأنّ العلم يزيح حجب الجهل.

والمقصود بحفظ الكون ليس الوجود على المستوى المادِّي فقط بل يعني أساساً حفظ كيان الإنسان الرُّوحي بإشاعة الصِّفَات النابعة مِنْ طاقة الحب والمكنونة في باطن الذات، وبذلك يشكل الحب رباطاً مقدساً وخاصاً بين الله والإنسان لا يقبل الاندثَار لأنَّه يعكس الانتماء إلى الغيب... مِصْدَاقاً لقوله تعالى في الحديث القدسي: "إذا تقرَّب إليّ عبدي بالنوافل أحببته، فإذا أحببته كُنْتُ سمعه الذي يسمع بـــه و... الخ".

يُمَثِّل حب النساء امتداداً للحب الإلهي لأنّه بفضله تتعرَّى أسرار الإيجاد مِمّا يسمح للمُحبٍّ ببلوغ مرتبة الكَمَال المعرفي، فَمَن حَصَل له هذا العِلم فقد ورث النبيّ ﷺ في هذا التَحبُّب وأصــبح الــوارث المحمدي.

يقول ابن عربـــي إنّ حب النساء أيضاً يُحَقِّق الكمال البشري لأنّه يُمَكِّن المحب مِن رؤية صورته الباطنية وحقيقته الغيبية مُتجليّة في

المرأة التي أحبّها مِن حيث هي هو في رتبة الانفعال. فيحوِّل الحب المرأة إلى مرآة ينظر عبرها الرجل إلى نفسه ويعرف حقيقة تعدّده في وحدته، واختلافه في هويته، ويدرك بذلك حقيقته الأصلية التي تطمسها الرّجولة والقيومية العرضيتان.

يقُول ابن عربي إنّ مِن أسرار المرأة أنّ الرجل يسجد لها عند النكاح، وبما أنّ السجود هو أشرف حالات للعبد في الصلاة، فيلتقي بذلك الحب بالعبادة وبالمعرفة في رمزية واضحة، لذلك حُبِّب للنبي النساء وكان حبه لهن امتداداً لحبّه لنفسه الحاملة لهذا الانفعال وطريقاً لمعرفة الذات وتقرّباً مِن الله.

يرى ابن عربي بأنْ ليس هنالك أعظم وصلة مِن النكاح لأنّ هذا النكاح عبارة عن مقام برزخي يجمع بين الأنثى والذكر والمنفعل بالفاعل، وعبره تنتفي الغيرية (بمعنى الذكورة/الأنوثة) ويصير الإنسان كما كان قبل الاتصال نفساً واحدة وإنساناً كاملاً، وتحصل في هذا المقام العودة إلى الأصل مِن خلال نقل المحب والمحبوب إلى مقام التكوين الأصلي.

وتأسيساً على ذلك يؤمن ابن عربي أنّ الله يَهِب لأوليائه الصالحين التّحبّب للنساء "لأنّهن محل التكوين لصورة الكمال". ويصير بذلك حُبّهن فريضة واقتداء برسول الله ﷺ ليشكّل حُب النساء سُنّة نبوية ومشاهدة للحق تعالى، وذلك لما تتمتع به المرأة من صفات شَهِد بها رسول الله ﷺ حينما قال: "حُبّب إليّ مِن دنياكم ثلاث النساء والطيب وجُعلَت قُرّة عيني في الصلاة"، فذكر النساء أولاً، لأنّه لا يعقل أن يُحبّب إليه ما يُبْعِده عن ربِّه، بل حُبِّب إليه ما يُقَرِّبه منه.

يقول ابن عربي إنّ من عرِف قدر النساء وسرّهن، لم يزد في حبّهن فقط، بل مِن كمال العارف بالله حبهن، لأنّ حب النساء بالإضافة لكونه إرثاً نبوياً، هو أيضاً تجسيد لكمال المعرفة وكمال الشهود وكمال الوجود وذلك لأنّهن ذوات أرحام وفيهن يكمن سر الوجود وسر الأنوثة.

يُؤمِن سلطان العارفين بأنّ الرجولة تظهر نتيجة تَحَكُّم الأنَا في الكائن البشري، فتقف هذه الأنَا حجاباً بين الله والإنسان فيبتعد هذا الرجل صاحب (الأنا) عن الله، وبالتالي فَمَن يعتقد أنّه رجل فهو واهم، لأنه تَخَيُّل غير محمول بمعنى أنّ الرجل اختلس نفسه بالاستقلال وهو في نفسه غير مستقل، فأخذه ذلك الاختلاس من يد الحق فتخيَّل أنّه مستقلاً وغير محمول، وهو جاهل لأنّه لم يعرف نفسه. ومَنْ لم يعرف نفسه جهل ربّه.

فتقترن الرجولة عند ابن عربي بالوهم والضعف والجهل لتعارضها مع حقيقة الإنسان ومع المرتبة الوجودية التي يستحقها، فالإنسانية تحتل رتبة التأخير في الوجود ويلتقي معنى التأخير بمعنى النسيء وهو في اللغة يعني التأخير ومِن النسيء اشتُقّ اسم النساء.

وذُكر التأخير لأنّ الله تعالى خلق قبل الإنسان العقل الأول واللوح المحفوظ أو النفس الكلية وغيرها مِن المخلوقات التي خلقها الله تعالى قبل الإنسان كالجن والملائكة... الخ ومِن هنا جاء التأخير. وعن هذا العقل الأول انبثقت الحقيقة المحمدية استناداً للحديث الشريف: "كنت نبياً وآدم بين الماء والطين" الذي رواه البخاري، وذلك عندما سُئِل: متى جُعلت؟. ثم انبثقت الأنوثة الكونية متمثلة عند ابن عربي في النفس الكلية التي عن طريقها تم أول زواج كوني

مع العقل الأول. ومن منطلق هذا التصوّر يفسر ابن عربي الحديث النبوي "حُبب إليّ من دنياكم النساء والطيب وجُعلت قرّة عيني في الصلاة". ويقول سَمَّاهُن بالنساء (وهو جمع في لفظه)، ولم يقُل حُبِّبَت إليّ المرأة، فراعى تأخر النساء في الوجود عنه باعتباره الحقيقة المحمدية التي سبقت خلق الإنسان نفسه كما أوضحنا آنفاً.

ثم يتناول ابن عربي الحديث النبوي "النساء شقائق الرجال" كأساس شرعي يُبَيِّن مِن خلاله أنّ الأحكام التي تسري على النساء هي نفسها التي تسري على الرجال، لذلك يفضل ابن عربي دائماً استخدام لفظ (النفس) للدقة في الدلالة على الإنسان، مقتفياً أثر الذين سبقوه مِن مفكِّري المتصوفة وذلك كي لا يُغلِّب الذكورة في حديثه باعتبار أنّ الإنسان وحدة واحدة انشقّت وظهر منها الرجل والمرأة كشقيقين متماثلين ومتكافئين مادِيّا وروحياً. والشِّق في اللغة هو النصف من كل شيء، وبحدوث الشقة أي البعد يشق الشيء إلى نصفين، غير أنّ الفصل بين النصفين (الرجل والمرأة) لا يلغي كونهما شقيقين.

كما يتأسس الاعتراف عند ابن عربي بإنسانية المرأة على عدم تهميش التأنيث في لغة لا يُخفِي على العارف ذكوريتها. ففي حديث: "حُبِّب إليّ مِن دنياكم ثلاث..." لم يقل ثلاثة، لأنّ فيها ذكر الطيب وهو مذكر، وعَادَة العرب أنْ تُغَلِّب التذكير على التأنيث وإنْ كان واحداً على التأنيث وإنْ كُنّ جماعة فتقول: "الفواطم - جمع فاطمة - وزيدٌ خرجوا" ولا تقول خَرَجْنَ. ولأنه عربي فراعى ﷺ المعنى الذي قصد به في التحبب إليه، فعلّمه الله ما لم يكُن يعْلَم وكان فضل الله عليه عظيما.

فما أعلم رسول الله ﷺ بالحقائق وما اشدّ رعايته للحقوق. وقد أبرز ابن عربـــي كيف عمد النبـــي ﷺ من خلال الحديث المذكور على تغليب التأنيث على التذكير كاسراً قاعدة مِن قواعد اللغة لتبليغ معنى التحبب بالنساء وليبيّن مشروعية إعادة النظر في قواعد اللغة متى اقتضت المعاني والحقوق ذلك.

في هذا السياق أنشد ابن عربـــي قائلاً:

إنَّ النِّسَـــاءَ شَـــقَائقُ الـــذُّكْرَانِ
عَـــالَمِ الأَرْوَاحِ والأَبْـــدَانِ
وَالحُكْـــمُ مُتَّحِـــدُ الوُجُـــودِ عَلَيْهِمَـــا
في هُـــوَ المُعَبِّـــرُ عَنْـــهُ بِالإِنْسَـــانِ
وَتَفرُّقـــاً عَنْـــهُ بِـــأَمْرٍ عَـــارِضٍ
فُصِـــلَ الإِنَـــاثُ بِـــه مِـــنَ الـــذُّكْرَانِ
مِنْ رُتْبَـــةِ الإِجمَـــاعِ يُحْكَـــمُ فِيهِمَـــا
بِحَقِيقَـــةِ التَّوحِيـــدِ في الأَعْيَـــانِ
وَإِذَا نَظَـــرْتَ إِلى السَّـــمَاءِ وَأَرْضِـــهَا
فَرَّقْـــتَ بَيْنَهُمَـــا بِـــلاَ فُرْقَـــانِ

ثم تأتي مسألة المواقف الداعية إلى إقصاء المرأة من الحياة العامـــة من دون سند شرعي، وموقف ابن عربـــي في دحضه لها وقولـــه أن المرأة تتعرض لأنواع مختلفة من الضغوط التي تمارس عليها لتثنيها عما لم يمنعه الدين عنها، كمسألة "إباحة الله لها إتيان المساجد".

فيقول البعض أن النبي ﷺ لو رأى ما أحدثت النساء بعده لمنع النساء من المساجد كما مُنعت نساء بني إسرائيل. وضرب مثلاً بالبعض الذي كان يغار على امرأته أن تخرج إلى المسجد لأنها كانت ذات جمال فائق فما زال يحتال عليها حتى امتنعت عن إتيان المسجد فسَرَّه ذلك.

ويقول ابن عربي لو استحكم هذا الرجل سلطان العقل ما غار على زوجته، ولو استحكم فيه سلطان الإيمان ما وجد حرجاً في قلبه، لأنه لا يوجد نص ديني يمنعها من ذلك. ويكشف بشكل مفصل أن محاصرة النساء في البيوت تعود إلى غيرة الرجال عليهن وليس لوجود سند ديني أو عقلي بل تعبيراً عن أحوال مزاجية ذكورية.

أما معارضة ابن عربي لإقصاء النساء عن مزاولة مختلف الأنشطة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وما يقال إنها تستند على الدين بما في ذلك الإمامة بشقيها الديني والمدني والتي أثارت الخلاف بين المسلمين. فيقول: هنالك من أجاز إمامة المرأة على الإطلاق بالرجال والنساء (وبه أقوال)، ومنهم من منع ذلك ومنهم من أجاز إمامتها بالنساء فقط دون الرجال. وموقفه هذا يضعها بين حَلَّين، إذ يُصَرِّح من جهة بصحة إمامة المرأة ويفصح من جهة أخرى عن جوازها فقط. وهذا التعارض الظاهر في موقف ابن عربي تفسره نظرته التي يتقاطع عبرها الإنساني بالأنثوي بالذكوري. فمن جهة انتماء المرأة إلى الإنسانية تتساوى المرأة والرجل فتصبح بذلك إمامة المرأة للرجال والنساء، ومن جهة تجسيد المرأة للأنوثة تصير إمامتها في حكم الجائز، لأن الإمامة فاعلية تضع المرأة في مقام الرجولة.

وابن عربـــي يعارض بشدة مقولة البعض "لم يفلح قوم ولّـــوا أمرهم إلى امرأة" وهو قول يتناقض مع أحاديث نبوية أخرى تتحدث عن التكافؤ بين المرأة والرجل منها حديث "النساء شقائق الرجـــال" وحديث "حُبِّب لي من دنياكم النساء". وفي كليهما تماثـــل للنســـاء بالرجال.

ويؤكد ابن العربـــي وجود النساء في جميع مراتب ومقامـــات ودرجات الصوفية، فيقول ما من طبقة ذكرناها إلا وقد رأينا منـــهم جماعة (متصوفة) من رجالٍ ونساء بمواضع كثيرة. ثم يذكر أنه قيـــل لأحدهم كم الأبدال؟ (وهي درجة من درجات الصـــوفية) فقـــال: أربعون نفساً، فقيل له: لم لا تقول أربعون رَجُلاً؟ فقال: قد يكـــون فيهم نساء. الجدير بالذكر أن الولاية في الفكر الصوفي عامـــة تقـــوم على نظام باطني يأتي على رأسه القطب أو الغوث يليـــه الإمـــام ثم الأوتاد ثم الأبدال.

ويعتقد سلطان العارفين بأن الأنوثة تَحضُر مع كل شيء، وبكل شيء، وفي كل شيء، وتتنوع لتتجلى عبر تأنيث أصـــلي وتأنيـــث مجازي وتأنيث حقيقي وتأنيث بالقوة وتأنيث بالفعل وتأنيث روحي وتأنيث مادّي. فكل ما يوجد يطبعه التأنيث بطابعـــه ويعـــبر ابـــن عربـــي عن ذلك شعراً فيقول:

مَـــا قُـــرَّةُ العَـــيْنِ إلاّ قُـــرَّةُ الـــنَّفْسِ

فَانْظُر إلى كُـــلِّ مَعْـــنى دُسّ في الحِـــسِّ

تجِدْهُ يَا سَـــيِّدِي إنْ كُنْـــتَ ذَا نَظَـــرِ

في الفَصْلِ وَالنُّوعِ بِالأَحْكَامِ في الجِـــنْسِ

فَلَيْسَ تَشْــهَدُ عَــيْنِي غَيْرَهَــا أَبَــداً

وَالنَّــاسُ فِي ذَاكَ فِي شَــكٍّ وَفِي لَــبْسِ

الطِيبُ وَالمَرْأَةُ الحَسْــنَا قَــدِ اشْــتَرَكَا

مَــعَ المُنَاجَــاةِ فِي المَعْــنى وَفِي الــنَّفْسِ

فَفَي الصَلاَةِ وُجُــودِي وَالنِّسَــاءُ لَنَــا

عَرْشٌ وَفِي الطِّيْبِ أَنْفَاسٌ مِــن الأُنْــسِ

الفصل الثامن

الرجل كفاعل
والمرأة كمفعول به

يشير ابن عربي إلى كلام أبي سعيد الخزاز حين سُئل: بم عرفت الله؟ فقال"بجمعه بين الضدين" ثم تلا قوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ...﴾ [الحديد: 3] ولّمح إلى هذه الزوجية من خلال تقابل الغيب والشهادة، والدنيا والآخرة، والجنة والنار، والسراء والضراء... وبفضل هذه القطبية ظهر الكون. يقول تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: 49].

يعتقد ابن عربي أن الانفعال يعبر عن ذاته من خلال صفات اللين والرأفة والمحبة والرحمة، وهي صفات اقترنت بالأنثى، وتدل وجودياً على الإمكان والقابلية والاستعداد ومنها يسري الانفعال في كل الموجودات ويصير خاصية جوهرية فيها لذلك يقول ابن عربي: "إن كل منفعلٍ فرتبته رتبة الأنثى، وما ثم إلاّ منفعل". مما يعني أنّ الأنوثة لا تقتصر على النساء بل تشمل كل الموجودات في الوجود ولكنها تتجسد في النساء لأنّ الأنوثة سارية في العالم كلّه وكانت في النساء أظهر، ولأهن محل الانفعال بمعنى أهن المفعول بهن، وليس الرجل كذلك لأنه يلقي ماءه (المني) في الرحم لا غير فهو الفاعل. والرحم معروف بأنّه محل التكوين والخلق، فيظهر أعيان ذلك النوع البشري في الأنثى لقبولها التكوين والانتقالات والأطوار الخلقية المصاحبة خلقاً بعد خلق إلى أن يخرج الجنين بشراً سوياً.

وبفعل الحب يصبح الوصل مستمراً بين المُحِب والمَحبُوب وانفعال المُحِب يتمثل في كونه يضع نفسه راضياً تحت تصرف إرادة

المحبوب. ويلتقي ابن عربـــي مع مشايخ الفكر الصـــوفي في اعتبـــار الحب خارج نطاق التعريف لأنه لا حدّ له. ويقولون في ذلك "مَـــنْ حَدَّ الحُب مَا عَرِفَه، ومَنْ لم يَذُق الحب شرباً مَا عرفه، ومَـــنْ قَـــال رَوِيت منه ما عَرِفه، لأن الحب شرب بلا رَي". وفي هذا السياق قال الصوفي العارف بالله أبو يزيد البسطامي "الرجل المُحِب مَنْ يحتســـي البحار ولسانه خارج على صدره من العطش". أمَّا المحبوب فيتمتـــع بقدرة التأثير والسلطة لتحكمه في قلب المُحِب، وبذلك تعود إليه رتبة الفعالية وصفة الذكورية. وفي نفس الوقت يقبل المحبوب توجه فعـــل المحب نحوه ويستقبل رغبته فينفعل كمحبوب فاعل إلى مُنْفعل، ومن ثم تلتقي في المحب والمحبوب الفعالية والانفعال، لأن كلاهما واقعـــان تحت سلطان الحب. ويُعبِّر ابن عربـــي عن هذا التداخل والتمـــازج بين الفاعلية والانفعال أي بين الفاعل والمفعول به، بِكَون "افتقار كل واحد إلى الآخر افتقار ذاتي".

وفي نفس السياق يركز ابن العربـــي على "النكـــاح" بمعـــنى الزواج الذي ينظر إليه على أساس أنه علم يســـميه "علـــم التوالـــد والتناسل" الذي هو من علوم الأكوان، وأصله مـــن العلـــم الإلهـــي الذي يسمح بفك أسرار الوجود الميتـــافيزيقي والمـــادي والروحـــي واللغوي.

فيتخذ "مصطلح" النكاح عند ابن عربـــي طابع تجريدي لعـــدم اقتصاره على الحس والمحسوسات، ولامتـــداده إلى عـــالم الكليّـــات والحقائق الخفية. ومن هذا المنطلق يصدر النكاح وتسري مبادئـــه في الكون والكائنات وبذلك يتصف النكاح بالشمولية لكونه أصل كل الأشياء. باعتبار أنَّ كل ما يحدث في الوجود ينتج عن نكاح.

وبفعل اختلاف مجالات تأثير النكاح الذي يشمل العوالم الحسية والروحية والإلهية، فقد تفرَّعت أنواعه عند ابن عربـــي.. إلى نكاح طبيعي حسي ونكاح مجرد (يعبّر عنه بتناســـل المعـــاني والأرواح)، ونكاح إلهي، تعود كلها إلى حقيقة واحدة تتلخص في الحركة بـــين الأنوثة والذكورة وهي حركة "الجماع". وهذه الحركة تتخذ شكلاً دائرياً، وبدورانها تنتقل الأنوثة وكذلك الذكورة من وجه إلى آخـــر داخل نفس الكائن، وبها يصير الحضور ثلاثياً مما يهيئ شروط الإيجاد لأن ظهور الكائنات لا يتم إلا بثلاثة عناصر، لأنه لا يكـــون عنـــد الاثنين شيء أصلاً ما لم يكن هنالك ثالث يزوجهما ويربط بعضهما ببعض ويكون هو الجامع لهما.

والنكاح يسمح للإنسان ببلوغ حقيقته الدفينـــة فيعـــرف أن اكتماله لا يتم إلا بحضور الآخر. فالنكاح سبب لظهور الكائنـــات، وفي حضرته يذوب الفرق بين المرأة والرجل ليعـــودا إلى وحـــدتهما الأصلية المتمثلة في "النفس" الواحدة التي صدرا عنـــها أولاً مصـــداقاً لقولـــه تعـــالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[النساء: 1].

يقول ابن عربـــي إنّ النكاح سبيلاً لتجلي الغيب وينطوي على أسرار غيبية كثيرة. لذلك تجد العارف بالله وخاصة القطب، يتّصف بكثرة النكاح ليوفي الطبيعة حقّها لأنه لا يرغب في النكاح من أجل النسل، بل سيراً على نهج النبـــي محمد ﷺ الذي كان أكثر الأنبيـــاء نكاحاً لِمَا في النكاح من أسرار لا يعلم بذلك إلاّ قليل من الناس عن طريق الكشف.

ومِن سر النكاح قوله تعالى: ﴿... وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا ...﴾ [البقرة: 235]، أي نكاحاً، فإنّ الله أيضاً يعلمه ويعلم ما ينتج عنه في الأرحام.

وابن عربـي ينطلق من رؤية تعتبر الإنسان واحداً ليس بـذكر ولا أنثى، بل هو (نفس) لا تمييز فيها وهذا ما صرّحت بـه الآيـة ﴿... ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ...﴾[النساء: 1].

أمّا تركيزه على الحب كمصدر للوجود وسبيل للمعرفة فقـد سمح له كما تقول الكاتبة نـزهة براضة، ببناء نظرة متميزة للإنسان تقوم على إرجاع حقيقته إلى الأنوثة والانفعـال. وهـذا يعـني أنّ الاختلاف بين الأنوثة والذكورة لا يتعلق بطبيعة بشرية ثابتـة بـل بمقامات معرفية سمّتْها الكاتبة المـذكورة بلغـة العصـر، عقليـات وسلوكيات ثقافية.

وعلى هذا المنوال نسج أساطين الصّوفية، فقال الحـلاج وهـو يُحَاكم بالإعدام: "أنا عروس الحضرة"، وقال البسطامي: "أولياء الحق هم عرائسه المحجوبون به تحت حجاب غيرته"، ووصـف الشـيخ الجزولي في دلائل الخيرات الرسول محمد ﷺ في معرض الصلاة عليـه قائلاً: "اللهم صلي على سيدنا محمد عروس مملكتك".

ولابن عربـي الذي يعتقد بأنّ الإنسان في جـوهره انفعـال وإمكان وأنوثة، وفي أحد القصائد التي يخاطب فيها الإنسان بضـمير التأنيث يقول في بعض أبياتها:

الصَّـومُ لله فَـلاَ تَجْهَلـي

وَأَنْـتِ مُجْـلاَة فَإِيَّـاكِ

الصَّـــــومُ للهِ وأَنْـــــتِ الَّتِـــــي

تَمُــــوتُ جُوعــــاً فَـــاعْلَمِي ذاكِ

أَنْثَـــكِ الـــرَّحْمَنُ مِــــنْ أَجْـــلِ

مَـــنْ يظْهَـــر مِنْـــكِ حِـــين سَـــوّاكِ

سُـــبْحَانَ مَـــنْ سَـــوَّاكِ أَهْـــلاً لَـــهُ

وَلَـــــمْ يَنَـــــلْ ذَلِـــــك إلاَكِ

كُونِي عَلَى أَصْـلِكِ فِــي كُــلّ مَـــا

يُرِيـــــدُ لاَ تنسِـــــي فَيَنْسَــــاك

الفصل التاسع

نساء فقن الرجال تصوفاً

إذا طرحنا السؤال المشروع: هل التصوف حكر على الرجال؟ أجاب ابن عربي بلا. ويضرب مثلا بعدة نساء كن قمة في التصوف وبلغن فيه مكانة عظيمة فاقت بعض الرجال. وتأتي على رأس القائمة رابعة العدوية التي اشتهرت بقصيدة في حب الله نقتطف منها:

أُحِبُّكَ حُبَّيْنِ، حُبّ الهَوَى
وَحُبّا لأنّكَ أَهْلٌ لِذَلِكَ
فَأَمَا الذِي هُوَ حُبّ الهَوَى
فَشُغْلِي بِذِكْرِكَ عَمَّنْ سِوَاكَا
وَأَمَّا الّذِي أَنْتَ أَهْل لَهُ
فَلَسْتُ أَرَى الكَوْنَ حَتّى أَرَاكَا
فَمَا الحَمْدُ فِي ذَا وَلاَ ذَاك لِي
وَلَكِنْ لَكَ الحَمْدُ فِي ذَا وَذَاكَ

وهي المعروف عنها قولاً تخاطب فيه رب العالمين مما معناه: "يا رب إنْ كنت أحبك وأعبدك لكي تدخلني الجنة، فلا تفعل بل أدخلني النار، لأنني ما عبدتك إلا حباً فيك وليس حبّاً في دخول الجنة".

ورابعة العدوية هي رابعة بنت إسماعيل مولاة آل عتيك العدوية البصرية العابدة والتي توفيت في حوالي 215 هـ (الموافق 830 م) ولا يعرف عن حياها إلا القليل. تميزت حياها بالتنقل من النقيض إلى النقيض ومن حياة المجون والغناء في بيوت اللهو والأفراح إلى حياة الزهد والورع.

وهو ما يفسر عند الكاتب الساعد خميس[6] قوة وحال مقام التوبة الذي ارتقت إليه، إلى حال ومقام محبة الله. وهي النقلة التي غيرت وطورت بها التصوف نفسه. وقبل الاستطراد في تفاصيل حياها دعونا تكملة قائمة النساء اللائي بلغن درجات عليا من التصوف. نذكر منهن "جارية عتاب الكاتب" التي قالت أيضا في حب الله:

يَا حَبِيبَ القُلُوبِ وَمَنْ لِي سِوَاكَا
أَرْحَمِ اليَوْمَ زَائِراً قَدْ أَتَاكَ
أَنْتَ سُؤْلِي وَبُغْيَتِي وَسُرُورِي
قَدْ أَبَى القَلْبُ أَنْ يُحِبّ سِوَاكَا
يَا مُنَايَا وَسَيّدِي وَاعْتِمَادِي
طَالَ شَوْقِي مَتَى يَكُونُ لِقَاكَا
لَيْسَ سُؤْلِي مِنَ الجِنَانِ نَعِيماً
غَيْرَ أَنِّي أُرِيدُهَا لأَرَاكَا

وهي أيضا كرابعة العدوية كأنها تقول لربها: "إن سؤالي لك أن تدخلني الجنة ليس بقصد التنعم بما فيها بل فقط لأتمكن من رؤيتك". وقد أوردنا في فصل سابق ذكر فاطمة بنت أبي المثنى تلك العجوز

ذات الخمس وتسعين سنة التي ذكر ابن عربي قصته معها وقد كانت تقول له أنا أمك الإلهية ونور هي أمك الترابية.

ومن النساء اللائي شهد لهن ابن عربي بالتفوق في التصوف حتى على الرجال، امرأة أندلسية تدعى "شمس أم الفقراء" وكذلك العابدة التي تسمى "النظام" وهي أخت صهره وأستاذه ابن أبي الرجاء الأصفهاني. وسنأتي على ذكر كل واحدة منهن لنثبت الحقيقة التي تقول بأن التصوف ليس حكراً على الرجال كما يعتقد الكثيرون من الذين يقللون من مكانة المرأة.

ننقل عن الكاتب ساعد خميس[6] أن موضوع المرأة والتصوف في رأي ابن عربي يمكن التطرق إليه من جانبين: جانب نظري وجانب تطبيقي. فالجانب النظري يتمثل في منزلة المرأة الصوفية وإمكانية بلوغها درجة الإنسان الكامل مثلها مثل الرجل. والجانب التطبيقي يتمثل في النماذج الحية للنساء الصوفيات اللائي ضربنا بهن المثل سابقاً، ومنهن مَن تتلمذ عليهن ابن عربي نفسه، ومنهن من تتلمذن على يديه. فرابعة العدوية مثلا شكلت نقطة تحول فارقة في التصوف الذي بلغت به المرحلة المفعمة بالحب الإلهي لذات الله، لا طمعاً في جنة وثواب، ولا خوفاً من نار وعقاب.

ولرابعة العدوية قصب السبق في التأسيس لمذهب المحبة ببعدها الإلهي فقط لا غير، لأن قلبها امتلأ بحب الله وحده ولم يبق به أي موضع لكائن من كان. وقد بلغ بها هذا الحب حدا أن توجهت باللائمة إلى العارف بالله "رياح بن عمرو القيسي" وهو المعروف بشدة ورعه وبكائه تضرعا لله، لما رأته يقبل ولده الصغير ويضمه إليه فقالت له أتحبه؟ قال: نعم. قالت: ما كنت أحسب أن في قلبك

موضعاً فارغاً لمحبة غيره تبارك وتعالى. فصرخ صرخة عالية وخر مغشيا ثم أفاق وهو يمسح العرق عن وجهه ويقول "هي رحمة منه تعالى ألقاها في قلوب العباد للأطفال".

يرى ابن عربي أن حب رابعة العدوية لله هو حب امرأة، فأنوثتها زادتها قدرة على التعبير عن حبها وعن تعلقها بمحبوبها وهو الله. إلى درجة قولها أن الله لو قطعها إربا إربا لم تزداد فيه إلا حبا. لذلك أعلى ابن عربي من مقامها الصوفي ووضعها في مقام "العرفان" وهي درجة تعلو على درجة الرجال سواء في الأحوال أو المقامات العليا. ومن هذه المقامات العليا: مقام التوبة ومقام المحبة.

من المعروف عند الصوفية أن من بلغ أي مقام، فقد وصل (إلى الله) لأنه مقام يتحقق فيه الفناء ولا يشعر فيه صاحبه إلا بذات الحق سبحانه وتعالى، ولأنه مقام يتحول فيه فعل العبد إلى فعل الرب بنص الحديث القدسي الذي ذكرناه في الفصل الخامس ويقول "وما زال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه... الخ".

وهو الحب الجنوني الذي يسميه ابن عربي "حب الحب" الذي يفنى فيه المحب في ذات المحبوب فناءً تاماً ينسى فيه نفسه، لأنها فنيت من كثرة الاستغراق الكلي في الحب.

وهذا النوع من العشق الإلهي يعتبره ابن عربي من أسرار العرفان التي لا يجب البوح بها ويقصد بذلك أن تقال إلا أنه لا يجب أن تذاع. وقال: "كل حب لا يفنيك عنك لا يعول عليه" بمعنى أن من رام الحب الإلهي و لم يبلغ هذا النوع من الحب، فهو غير قادر على بلوغ الكمال... لأن الحب شُرْبٌ بلا ارتواء. ومن هذا المنطلق عن المقام العالي لرابعة العدوية لدى الصوفية كانوا يعتبرونها قدوة لهم.

نموذج رابعة العدوية وغيرها في الحب الإلهي لدى ابن عربـــي، يؤكد أن المرأة في التصوف وفي مكانتها العليا فيه، ليس فقط من باب عشقها أو كونها محلاً للانفعال، بل لما لها من إمكانية لبلوغ الكمـــال في التصوف مثل الرجل تماماً، ولا فرق في هذا المسعى بين الجنسين ما داما يؤلفان "الإنسان" الذي أنيطت به الخلافة.

وأيضا لأن الحديث النبوي يقول "إنما النساء شقائق الرجـــال" وكذلك بحكم مقام الواحدية الذي للمرأة والذي يجعلها أقرب مـــن الرجل للصفات الإلهية بحكم أنها تحتوي على الرحم محـــل التكـــوين والخَلْق، والذي له علاقة وثيقة بصفة من صفات الله واسم جليل من أسمائه وهو "الرحمن"، وأيضا بحكم القرآن الكريم نفســـه الـــذي لم يستثني المرأة من مخاطبتها بمواصفات: العبادة والتوبة والإسلام والأيمان والقنوت وكل ما من شأنه أن يقرب العبد إلى ربـــه ويحببـــه إليـــه. فتحدث القرآن عن الذاكرين والـــذاكرات والتـــائبين والتائبـــات والسائحين والسائحات، فقـــال تعـــالى: ﴿... مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: 5].

فإذا كانت هنالك مفاضلة بين الرجال والنساء في أشياء معينـــة فيعتبرها ابن عربـــي (مفاضلة بالأكملية وليست بالكمالية) ويقـــول أن هذه المفاضلة موجودة حتى بين الرسل والأنبياء فليسوا كلهم على درجة واحدة من التقرب إلى الله. وقد كلف الله الرجال كما كلف النساء، واختص المرأة بحكم لا يكون للرجل، واختص الرجل بحكم لا يكون للمرأة.

وفي موضع من أحد كتبه، يتحدث ابن عربـــي عن العلم الإلهي الخاص الذي حازته اثنتان من زوجات النبـــي ﷺ، وهمـــا حفصـــة

وعائشة، وهو علم وتصرف في العالم لم ينله أحد غيرهما من كافة الخلق، مما يدل على بلوغهما درجة من الكمال وتفردهما بذلك (الفتوحات المكية - الجزء الثالث - ص 150).

ونجده عندما تحدث عن العابدة العجوز فاطمة بنت أبي المثنى قال: "تَهافُت الرجال على خدمتها، يعكس ما بلغته هذه المرأة من مكانة في التصوف والورع والزهد" فقد كانت تقتات من الفضلات ولم يكن لها بيتاً تأوي إليه حتى بنى لها ابن عربي كوخاً صغيراً سكنت فيه إلى أنْ وافاها الأجل. ويقول عنها: "إنها لا تأكل إلا ما يطرح الناس على أبوابهم من الفضلات، وكانت قليلة الأكل جداً، وكنت إذا قعدت معها أستحي أن أنظر إلى وجهها من عظيم نوره ونور وجنتيها ونعومتها، وهي في الخامسة والتسعين من عمرها". قالت لي: "أُعْطِيت الفاتحة أتصرف بها في كل أمرٍ شئت". وكان لها من تصرفها بالفاتحة كرامات كثيرة وكان لها حالٌ خاص مع الله. وكانت تؤثرني على كل من يخدمها من أمثالي وتقول: "ما رأيت مثل فلان إذا دخل علي دخل بكليته، لا يترك منه خارجاً عني شيئاً" بمعنى أنّ حضوره معها كان روحاً وجسداً وقلباً وقالباً. وكانت تتعجب ممن يدعي حب الله ويبكي تضرعاً له. ففي رأيها لا شيء يجمع الحب والبكاء، لأن الحب مقرون بالفرح والبهجة والسعادة، بينما البكاء مقرون بالحزن والندم وعدم الوصول إلى البهجة الكاملة ونيل السعادة المطلقة، وهي السعادة التي لا يبقى معها غم ولا حزن، لأنها حب نتج عن معرفة، ومعرفة نتجت عن حب.

يقول ابن عربي واصفاً هذا الموقف المتميز لفاطمة حسب قولها: "عجبتُ لمن يقول أنه يحب الله ولا يفرح به وهو مشهوده،

عينه إليه ناظرة ولا يغيب عنه طرفة عين، فهؤلاء البكاؤون كيف يدَّعون محبته ويبكون؟ أما يستحون؟ إذا كان قُربه مضاعفاً من قرب المتقربين إليه، والمحب أعظم الناس قُربَة إليه فهو مشهوده، فعلى مَنْ يبكي؟ إنّ هذه لأعجوبة".

ولما عرضت فاطمة فكرتها هذه عن الحب الإلهي ورفضها الجمع بين البكاء والمحبة على ابن عربي، وطلبت منه رأيه وافقها على ما قالت، وأقر في نفس الوقت بالعلاقة بين الأمومة والنبوة الروحية والرمزية بينهما فقال: "ثم تقول لي يا ولدي: ما تقول فيما أقول؟" فأقول لها: "يا أمي القول قولك" وبهذا يعترف ابن عربي بالتتلمذ على امرأة صوفية أرته معنى الحب الإلهي.

وقد أكد ابن عربي علاقة الأمومة التي تربطه بهذه العجوز التي كانت إذا زارتها أمه الحقيقية "نور" تقول لها: "يا "نور" هذا ولدي وهو أبوك، فبِرِّيه ولا تَعُقّيه"، فالعجوز هذه جردت والدته من أمومتها له، بل حولتها إلى بنت له وهو أبوها. وبدلاً من أنْ تأمره بأن يكون باراً بوالدته أمرت والدته أن تكون بارة به. وتفسير ذلك والمقصود منه، هو علم العجوز بأن ابن عربي كان باراً بوالدته وعلى تربية صوفية تؤهله لمقامات عليا، وتتنبأ له بالولاية والقطبية التي تجعله أباً لكل البشر والكل يجب عليه طاعته، وبهذا الفهم يصبح ابن عربي أباً لأمه.

أما عن المرأة الصوفية الأندلسية "شمس أم الفقراء" يقول عنها ابن عربي: "ما لقيت في الرجال مثلها في الحمل على نفسها، كبيرة الشأن في المعاملات والمكاشفات، قوية القلب، لها همة شريفة. اختبرتها مراراً في باب الكشف فوجدتها متمكنة، الغالب عليها مقامي

الخوف والرضاء وتحصيل هذين المقامين في وقت واحد عندنا عجيب يكاد لا يتصور".

أما النساء اللاتي تتلمذن على يد ابن عربي وألبسهن ما يسميه الصوفية بالخرقة (كسوة الشرف الصوفي) بلغ عددهن خمس عشرة امرأة من المريدات و لم يُلبِّس ابن عربي هذه الخرقة إلا لاثنين من الرجال المريدين فقط.

ومما ورد في شعره عمن ألبسهن الخرقة نذكر قوله عن مريدة له اسمها فاطمة:

ثَوَابُ التُّقَى وَالْهدَى أَلْبَسْتُه فَاطِمَةُ
وَمَا أَرَى لِلِبَاسِ الخَيْرِ مِنْ عِوَضِ
أَلْبَسْتُهَا خِرْقَةٌ عَلْيَاءَ جَامِعَةٌ
تُزِيلُ عَنْ قَلْبِهَا مَا فِيهِ مِنْ مَرَضِ

وبهذا يرى ابن عربي أن المرأة يمكن أن تبلغ أقصى درجات التصوف وهي درجة القطب الغوث فتكون "مركز الدائرة ومحيطها ومرآة الحق، وعليها أو عليه مدار العالم، ولها أو له رقائق ممتدة إلى جميع قلوب الخلائق".

وفي كل هذه مهام مناطة بالإنسان الكامل وتعتبر مسؤولية وملك بتكليف إلهي، بمعنى أن المسؤولية هنا أكبر وأعظم بكثير جدا من مسؤولية قد يكلفها به أو بها البشر، والملك هنا أعظم من أن يقاس بالملك في الدنيا. فللصوفية دولتهم الخاصة بهم، وهي دولة الأرواح لا دولة الأجساد، دولة لا حدود جغرافية لها لأنها موصولة بأسماء الله وصفاته.

خلاصة الأمر أن المرأة هذه المخلوقة الرقيقة قد اتضح من وجهة نظر ابن عربـــي أنها مؤهلة صوفيّاً للوصول إلى أعلى الدرجات، وقد تتفوق في ذلك على الرجل وهنا يكمن سر قوتها في مجال يعده الناس حكراً على الرجال، لما فيه من عناء وجوع وشدة وزهـــد ونكـــران ذات وانقطاع إلى الله.

وعموماً عندما عَنْوَنّا هذا الكتاب (سر قوة المـــرأة عنـــد ابـــن عربـــي) لم نكن نعني بقوة المرأة، قوتها الجسدية أو العضلية، لأن هذا النوع من القوة ليس من خصائص تكوينها وفطرتها ومقوماتها، بـــل نعني قوة شخصيتها وعطائها الأمومي والإنساني والعقلي والإبداعي، الذي أوصل البعض منهن إلى مقامات عليا في التصوف فُقْـــن هـــا الرجال.

الفصل العاشر

المرأة والتجلي والحب الإلهي

يقول ابن ملقن الأنصاري نقلاً عن الكاتب ساعد خميسي(6) "أن أفضل التجليات الإلهية عند ابن عربي، هي التجلي في المرأة. وعزى ذلك أولاً لأن الأنثى لها الأفضلية على الرجل من حيث المقام، باعتبارها هي محل الانفعال وثانياً لأن حب النساء شيء كامن في الرجل بالفطرة. وهذا له صلة ومعنى بالألوهية، واستدل على ذلك بقول الرسول ﷺ عن أنس: "حبب إِلَيَّ من دنياكم ثلاث: النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة".

والذي استوحى ابن عربي منه ليس فقط "فكرة" فطرية الحب بل أيضا فكرة تأخر المرأة عن الرجل في الخلق وتقدمها عليه في المقام، ثم فكرة التأنيث وأهميتها في الحب، وفكرة التثليث السارية في كل شيء والتي استرعت انتباه ابن عربي في الحديث الشريف السابق وورود كلمة (ثلاث) بدلا من كلمة (ثلاثة) بالرغم من أن اللسان العربي درج على تذكير العدد إن كان المعدود مؤنثاً، وتأنيثه إن كان المعدود مذكراً.

وفي الحديث النبوي نجد أن المعدود مذكر ممثل في كلمة (الطِّيبْ) التي وردت مع الصلاة والنساء. ورغم أن ابن عربي لم يشك إطلاقاً في إعجاز النبي ﷺ اللغوي، إنما ذهب إلى الاعتقاد بأن النبي قصد تفضيل التأنيث حتى يؤصل ابن عربي لفكرته التي تقول بأن الأنوثة هي السارية في كل شيء. وعزز ابن عربي فكرة تفضيله للتأنيث على التذكير نسبة لورود كلمة المذكر (الطيب)

بين مؤنثين وهما النساء وهي تأنيث (حقيقي) والصلاة وهي تأنيث (غير حقيقي). وهذا ما جعله يعتبر التأنيث هو حقيقة وجوهر الوجود، وأن الغاية في النهاية هي الاتصال بالله أو مشاهدته متجليا. وأفضل التجليات الإلهية تكون في النساء الطيبات اللائي خصصهن الله للطيبين.

ويعتبر ابن عربي أنَّ الحكمة مِنْ ورود كلمة الطيب في الحديث النبوي أنَّ الطيب الأطيب هو الصادر من عناق الحبيب الذي أوّلَه أيضاً كرمز للرائحة الإلهية في المرأة أكثر من الرجل، لأنها هي التي تتطيب وتتجمل للرجل، ومِن هنا كانت محبة النساء والالتحام معهن والفناء في حبهن طريقاً إلى الفناء في الله ومحبته.

وعزى ذلك إلى الرجل الذي يحب المرأة حب التخلق الإلهي ويطلب منها اتصال النكاح حيث تعم الشهوة الجسم كله فيحدث الفناء، فإذا شاهد الرجل الحق تعالى في المرأة في هذه الحالة يكون شهوده لله شهوداً في منفعل، لهذا أحب النبي ﷺ النساء لكمال شهود الحق فيهن.

يقول ابن عربي: "إنَّ الإنسان قد يحب النساء ولكن حبّه الكبير وميله الشديد قد تحوزه امرأة واحدة، وهي التي يحدث له معها الشهود، ويتحقق له معها وفيها الفناء. وقد استشهد في ذلك بحب الرسول ﷺ لعائشة، لأنّه كان يحبها أكثر من جميع نسائه.

ونجد نفس الشيء ينطبق على ابن عربي نفسه فقد أحَبَّ عدد من النساء وتزوجهن ولكن حبه الشديد كان لـ (نظام) بنت الشيخ مَكِين الدين الأصفهاني التي خصَّها بأشعاره الرمزية، وكانت هي التي يحدث له معها الشهود والفناء. كان يحبها ويحب الله من

خلالها ويرى نفسه فيها. وبرمزية حبه لها وغزله فيهـــا أدرك الحـــب الإلهي وقد تجلى كل ذلك في كتابه (ترجمان الأشواق).

ولكن إذا أصبحت العلاقة بين الرجل والمرأة علاقة لذة جنسية آنية ليس فيها تقرب من الله ولا تحقق له الشهود، فهذا نـــوع مـــن العلاقة وصفها ابن العربـــي بالفتنة التي في النســـاء والمـــال والجـــاه والولد، والتي قد تبعدك عن الله ولا تقربك منه. ولكن إذا أحســـن المرء التعامل مع هذه الفتن الأربعة (النساء والمال والجاه والولد) فيما يقرب إلى الله كانت من النعم.

كما يذكر ابن عربـــي بالتبرير الذي يقول، يحب الرجل المرأة لأنها جزء منه، وتحب المرأة الرجل لأنه أصلها، وكلاهما يرى نفســـه ويحب ذاته من خلال الآخر. كالمرآة التي يرى فيها نفسه ويرى فيها الحق متجلياً فيعرفه، لكونهما مخلوقين على صورته ويشـــكلان معـــاً الإنسان الكامل. وأفضل لحظة للمشـــاهدة، هـــي لحظـــة الوصـــل والالتحام وهي لحظة النكاح وتحقق الفناء. ولهذا الفنـــاء المتحقـــق، فَرَض الشرع غسل الجسم كله حتى تعمه الطهارة كما عمَّه الفناء.

المراجع

1. **القرآن الكريم.**
2. **الأحاديث النبوية الصحيحة.**

الكتب:

3. خالد العك، **موسوعة الفقه المالكي**، دار الحكمة - بيروت، 1993م.
4. ساعد خميسي، **ابن العربـــي... المسافر العائد**، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون - بيروت، 2010م.
5. محمد صديق حسن خان، **نيل المرام من تفسير آيـــات الأحكـــام**، دار المعرفة - بيروت، بدون تاريخ.
6. محي الدين بن عربـــي، **تفسير القرآن الكريم** الجزء الأول - منشورات دار اليقظة العربية - بيروت الطبعة الأولى 1968م.
7. ________________، **الفتوحات المكية**، (4 مجلدات)، دار صادر - بيروت، بدون تاريخ ومصورة عن طبعة دار الكتب العربية الكبرى - مصر 1329هـــ.
8. نـــزهة براضة، **الأنوثة في فكر ابن عربـــي**، دار الساقي - بـــيروت، 2008م.
9. نصر حامد أبو زيد، **هكذا تكلم ابن عربـــي**، المركز الثقافي العربـــي - الدار البيضاء - المغرب وبيروت - لبنان - الطبعة الثانية 2004م.
10. نصر حامد أبو زيد، **فلسفة التأويل - دراسة في تأويل القرآن عند محي الدين بن عربـــي**، دار التنوير - بيروت، 1983م.

11. أسماء بن قادة، **قراءة في فلسفة الجمال**، مقال في جريدة الراية القطرية العدد 10704 بتاريخ 2011/8/28م.
12. إيمان مصطفى، **العقل والقدرة... فروق جوهرية بين الرجل والمــرأة**، مقال في جريدة الوطن القطرية، العدد 5868 بتاريخ 2011/9/27م.
13. بلال أبو دقة، **عالم أجنة يهودي يعتنق الإسلام**، مقال في جريدة القدس العربــي - لندن 2012 م
14. **تسعة أشياء لا يستطيع الرجل فهمها في المرأة**، مقال في سيدتي نــت بتاريخ 2011/11/23م.
15. ثقيل بن ساير الشمري، **البصمة الوراثية والحمض النووي**، مقــال في جريدة العرب القطرية العدد 8807 بتاريخ 23-7-2012.
16. جهاد فاضل، **سر الاهتمام المعاصر بابن عربــي**، مقــال في صــحيفة الراية القطرية، العدد 10654 بتاريخ 2011/7/9م.
17. عاطف المهدي، **النساء أطول عمرا من الرجال: لماذا؟**، مقال متــرجم في جريدة الوطن القطرية - العدد 6183 بتاريخ 7-8-2012.
18. عبد الحميد الأنصاري، **نصوص قرآنية أسيء تفسيرها - "وليس الذكر كالأنثى" وهم ثقافي مزمن**، مقال في جريدة الوطن القطريــة، العــدد 5895 بتاريخ 2011/10/24م.
19. **عقول الإناث أكثر نشاطاً من عقول الرجال**، مقال في جريدة الوطن القطرية، العدد 5893 بتاريخ 2011/10/22م.
20. مها عزت. نقلا عن الدكتورة سلمى محمود، **المرأة لا تنسى الإســاءة**، مقال في جريدة الشرق القطرية - العدد 8751 بتاريخ 1-6-2012.
21. **نائب أفغاني لزميلة : "اخرسي فأنت ناقصة عقل"**، مقال في جريــدة الوطن القطرية، العدد 5870 بتاريخ 2011/9/29م.
22. نورهان فتحي، **جين خاص بالطلاق عند الأنثى**، مقال في جريدة الوطن القطرية - العدد 6022 بتاريخ 28-2-2012



سر قوة المرأة عند ابن عربي

د. الصادق عوض بشير

لمْ يُنصف شخص المرأة، وخاصة المرأة العربية المُسلمة، كما أنصفها الشيخ الأكبر مُحْي الدِّين بن عربي (1165 - 1240م) المعروف في الأوساط الصوفية بسلطان العارفين (وهم العارفون بالله). يقول في كتبه الكثيرة التي تجاوز عددها الأربعمائة كتاب، أشهرها على الإطلاق (الفتوحات المكيَّة) بمجلداته الأربعة، التي تحتوى على حوالي 2800 صفحة. أنَّ إنصاف المرأة منْ إنْصاف الله تعالى.

ومنَ الذين سبروا غور هذا الإنصاف الكاتبة نزهة براضة، فأعطته بُعداً إنسانياً. قالت في مقدمة كتابها (الأنوثة في فكر ابن عربي) «إنَّ الأنوثة تشكل بالنسبة إلى ابن عربي أحد الأركان المحورية في فكره، بل اعتبرت أنَّ خطابه في عمقه وشموليته، يعكس خطاب الأنوثة... وأنَّ حضور الأنوثة في خطابه يخترق تصور الشيخ للوجود والكون والإنسان واللغة والعرفان والسلوك والخيال... ويتقاطع عبرها الإنساني بالوجودي». ثم استشهدت الكاتبة بالأستاذ مسل [illegible] الذي قال في إحدى ندواته «أنَّ فكر [illegible] على ثلاثة محاور تتمثل بالحقيقة [illegible] الإنسان الكامل والأنوثة».



twitter.com/ASPArabic

ISBN 978-614-01-1350-3






الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

